الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي– تيسمسيلت–
معهد اللّغات و الآداب

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في اللّغة والأدب العربي موســـــــــومة بـــ:

الحداد الشعري.. الأنماط واللّغة والتصوير

"قراءة في نماذج شعرية عربيّة قديمة"

تخصص: أدب عربي قديم.

من إعداد الطالبتين:
- ملوك مليكة
- باشا مليكة

إشراف
د/ فايد محمد

د/مصابيح محمد	**رئيسا**
د/ فايد محمد	**مشرفا ومقررا**
د/ خلف الله بن علي	**عضوا مناقشا**

الموسم الجامعيّ: 1440- 1441هـ/ 2019- 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــــر وعرفان:

بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم والحمد لله على نعمة وشكره على عونه، فلا يسعنا إلاّ أن نخط أسمى عبارات الشكر للواحد الأحد الّذي منحنا القوة ورزقنا الصبر والإرادة والإيمان لنصل لهذا المستوى، ونحمده حمد يليق مقامه ونسأله الرضا والقبول، كما نتقدم بالشكر الجزيل فائق الاحترام إلى الأستاذ المشرف " فايد محمد " الّذي قبل تأطيرنا ومنحنا الثقة لإتمام هذا العمل الّذي كان نعم الموجه والمحفز للبحث والمثابرة، ونرجو أن يجازيه الله خير الجزاء، كما نتقدم بتحية عطرة ملئها التقدير والاحترام، إلى كلّ أساتذة قسم اللّغة العربيّة وآدابها أدامهم الله في خدمة العلم.

إهـــــداء

إلى كل من نطق باسم الله وصلى على النبي المختار وسلم عليه

أهدي ثمرة عملي هذا:

إلى من وضع الخالق تحت أقدامها جنة الخلد، إلى أغلى امرأة في الوجود إلى قرة العين، إلى من غمرتني بالحب والحنان و أنارت لي الطريق، إلى من أحبها أكثر من نفسي: **أمي** الحبيبة أطال الله في عمرها.

إلى من أحسن تربيتي وسكن حبه قلبي ووجداني إلى مثلي الأعلى إلى الّذي كرس وقته لأعيش في هناء لك مني أسمى عبارات الحب والاحترام، إلى **أبي** الغالي عبد القادر حفظه الله.

إلى جدتي الغالية أطال الله في عمرها.

إلى إخوتي وشموع أملي: محمد، مصطفى، الحاج، أعمر، مولود، إلى أخواتي العزيزات على قلبي: بختة ، رشيدة.

إلى براعم الأسرة الحبيبة أبناء إخوتي كلهم: أشرف، لجين، ريتاج، حواء، لؤي، صُهيب، محمد إسلام، عبد الوهاب.

إلى زوجات أخواتي كلهم و إلى كل من لم تلدهم امي وولدهم القدر وحب الخير إليكن يا من اتسع القلب بلقائكن وضاق حزنا لفراقكن صديقاتي الحبيبات: نورة، فوزية، سعاد، سميرة، زهية، فريحة، سعاد منال، سومية، عائشة، أسماء، مليكة، سعدة، صبرينة.

إلى زميلتي وحبيبتي الّتي قاسمت معها العناء في إنجاز هذا العمل " مليكة"

إلى الّذي كان لنا سندا في هذا العمل إلى الأستاذ المشرف: "فايد محمد" إلى جانب الأستاذ الفاضل بوشنافة سعيد الّذي ساعدنا في إنجاز هذا العمل إلى أغلى هؤلاء أهدي ثمرة جهدي وشكرًا.

مليكة ملوك

إهـــــــداء

الحمد لله الّذي أنار لي درب العلم والمعرفة وأعانني على أداء هذا الواجب ووفقني في إنجازه أقدم هذا العمل المتواضع إلى:

من ربتني و أعانتني بالصلوات والدعوات أغلى إنسانة في هذا الوجود، إلى التي غمرتني بحنانها وعطفها، وسهرت اللّيالي لراحتي، إلى شمعة الأمل الّتي أنارت دربي.

إلى الّتي لو أهديها حياتي لن تكفي في حقها **أمي** ثم **أمي** الحبيبة حفظها الله لي.

إلى الغالي الّذي كان حافزي ومشجعي، إلى من علمني أ، الحياة مبادئ فاضلة وأخلاق سامية، إلى من جد وسعى من أجل راحتي إلى الّذي لا مثيل له، إلى من رباني على الصدق والإخلاص **أبي الغالي "رابح"** أدامه الله لي.

إلى رمز الحنان إلى الأعزاء على قلبي إخوتي و أخواتي وسندي في الحياة: (فضيلة، محمد، بن حليمة، زهور، زينب، عايدة، شيماء.)

إلى بسم روحي وحياتي إلى من هم أنس عمري أبناء إخوتي: (محمد، عماد، أيمن، ريتاج، فدوى، لوجين، كادي.)

إلى الكتكوتة : وفاء، إلى زوجات أخواتي إلى من جمعتني بهن الأقدار فعشت معهن أحلى و أجمل الأوقات وقضينا أروع الذكريات فأصبحنا أروع الحبيبات: مليكة، سعدة، قطر الندى، إلى الّتي شاركتني عناد إعداد هذه المذكرة صديقتي الغالية: "مليكة".

إلى من رحلت عنا دون وداع ولا رجعت إلى من غابت عن عيني وبقيت في قلبي أختي: "فتيحة" رحمها الله الّتي تمنيت أن تعيش معي فرحتي.

إلى الّذي كان سندا ودعما لنا حتى أكملنا هذا العمل، إلى المشرف: "فايد محمد" حفظه الله، وأخص بالذكر الأستاذ المحترم "بوشنافة سعيد" الّذي قدم لنا يد العون والمساندة أطال الله في عمره.

إلى كل أساتذة الأدب العربي وشكرًا.

مليكة باشا

مقدمة

مقدمة:

إن الشعر العربي القديم تمظهر في أشكال عصور مختلفة ومن بين تلك التمظهرات الأغراض الشعرية، وقد كان المدح هو الغرض المركزي وهو ذكر خصال الحي، فإذا ذكرت خصال الميت فهو رثاء.

فالوفاء فن أصيل يعد من أسبق الفنون وأصدقها لأنّه تعبير صادق عن النفس الإنسانية، فالإنسان في حياته أحداث و أرزاء تثير فيه الحزن وتذيقه اللوعة والحسرة وانتزعت أهات أعماقه ويبقى الموت الحدث الأعظم والمصاب الأكبر في الوجود الإنساني، حيث وقفت الإنسانية منذ الأزلية تعبر عن عاطفة الألم كلما امتدت يد الغيب لتعطل بالموت فعل الحياة في الإنسان والرثاء هو من التفجع على الميت وبكاء فضائله، ولا ريب أن هذا اللون من العاطفة قد ارتقى خلال الأعصر وعبر الأجيال الإنسانية حتى استوى فنا من الفنون الغنائية وتختلف طبيعته باختلاف صلة الراثي بالميت وشخصية المرثي ولعل هذا ما دفعنا إلى تتبع الحداد الشعري في الشعر العربي القديم فمن هنا نطرح التساؤل التالي: كيف توزعت مراثي الشعراء؟ وفيما تمكن مواطن الحزن في قصائدهم؟ وكيف وقفوا عند هذه الظاهرة؟

أما سبب اختيارنا لهذا الموضوع تلبية لرغبة أستاذنا المحترم، وللخوض في الكشف عن جماليات غرض الرثاء الذي جاءت به قرعة الشعراء.

و اخترنا أن تكون معالجة هذا الموضوع بإتباع المنهج والوصفي التحليلي كونهما ملائمين لطبيعة الموضوع.

وقد تمحور بحثنا بالخطة التالية: مقدمة ومدخل وفصلين وخاتمة وهذا ما افتضاه عنوان بحثنا. المدخل معنون بالأدب الحزين الواحد المتعدد تناولنا فيه تفريق الرثاء لغة و اصطلاحا و أقسامه و أهم شعراء المراثي، ثم تحدثنا عن الحداد وكذلك الحزن وتمظهرات الأدب الحزين في الأجناس الأدبية، والفصل الأول عنوناه بحداد الدم و أدرجنا تحته العناصر التالية: حداد النقل الأبدي وينطوي تحته: رثاء الأبناء والزوجة، العلماء، والأهل و الأقارب ثم تطرقنا إلى حداد الظعن ويضم

رثاء الأصدقاء والحبيبة فيما تحدث الفصل الثاني حول حداد التراب وقد قسمناه إلى رثاء المدن والديار والدول، وختمنا بحثنا هذا بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها.

وذيلنا بحثنا بقائمة من المصادر والمراجع متعددة ومتنوعة في مقدمتها: فنون الشعر العربي لعمر فاروق الطباع.

وككل الباحثين اعترضتنا العديد من الصعوبات على غرار قله المراجع وخاصة الورقة ومع ذلك وقد تجاوزنا العقبات بفضل الله تعالى أولا ثم بفضل رعاية الأستاذ المشرف قايد محمد الّذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته القيمة متمنين من الله عزَّ وجَّل الإطالة في عمره مع مزيد من النجاح له.

فكل الامتنان والتوسل منا لله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى الشكر لكل أساتذة المركز الجامعي تيسمسيلت ، على وجه العموم والأستاذ المشرف على وجه الخصوص ونسأل الله المولى عزّ وجّل أن يحيط بحثنا بالقبول و أن يجزي من أعاننا على إتمامه خير الجزاء والحمد لله أولا وآخرًا.

مدخل

الأدب الحزين... الواحد المتعدد.

بحكم أن الحداد الشعري يدخل تحت مظلة نوع أدبي شهير هو الأدب الحزين ، فإن الدراسة تتطلب منا وقفة مع هذا النوع الأدبي حتى نستلجي بعض حيثياته وملابساته ، وحيث إن المفاهيم تتوقف على المصطلحات فإننا نفتتح المدخل بتحليل بعض المصطلحات التي تشترك مع الحداد في الحقل الدلالي، وهي الحزن والرثاء بالإضافة إلى الحداد.

قراءة في مصطلحات الحقل البحثي:

1-الحزن.

2-الحداد.

3-الرثاء.

1.**تعريف الحُزْنْ:** ورد في لسان العرب لابن منظور: الحُزْنْ في لغة العرب:" ما غلظ من الأرض ، ويطلق أيضا على خشونة الأرض ، وخشونة النفس لما يحصل فيها من الغم وهو نقيض السرور فيقولون حزن حزنا ، وحزن بمعنى اغتنم". [1]

ويعرف الكندي الحُزْنْ بأنه: ألم نفساني ناتج عن فقد أشياء محبوبة أوعن عدم تحقيق رغبات مقصودة..... وحقيقة الحزن عنده، شعور نفسي فطري يتمثل في انقباض المزاج وفقدان المتعة و السرور لدى الإنسان وهو ينتاب كل إنسان من فترة لأخرى حسب ما جبل عليه من الأخلاق، وما يعتريه من نكد الحياة لذا فإنه لا يدوم في الغالب، بل يضمحل من تلقاء نفسه، أو بمقاومة الشخص إياه له بالأسلوب المناسب، فالحزن و الفرح أمران فطريان متضادان خلقهما الله في وجدان الإنسان، يخمد أحدهما بطغيان الآخر عليه وظهوره. [2]

[1] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، المجلد الرابع، 1863م، ص 109، 110.

[2] – ينظر: فوزي إبراهيم الحاج، ظاهرة الحزن في ديوان عمّ مساء أيها الرجل الغريب للشاعر طالب هماش، مجلة جامعة القدس المفتوحة للدراسات، العدد 34، 2014م، ص14،15.

"والحُزْنْ هو أحد صور العاطفة و المشاعر الإنسانية الفطرية وهو ضد الفرح و السرور، فالحزن و الفرح موجودان في الإنسان وهما فطريان" [1]، كما قال سبحانه و تعالى: { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى } سورة النجم الآية 43.

وقال سبحانه وتعالى عن آدم عندما أنزله من الجنة: { قُلْنَا اِهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونْ } سورة البقرة، الآية 38.

فيبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أن من يتبع هداه فإنه لا يحزن ومقتضى ذلك أن الذي لا يتبع هدى الله فإنه يحزن.

فالحزن شيء فطري ينتاب كل البشر عندما تقابلهم متاعب هذه الحياة الدنيا ولا أحد يستثنى من ذلك.

والأمثلة كثيرة في القرآن الكريم كحزن أم موسى، وحزن الأنبياء وكحزن يعقوب على يوسف عليهما السلام وحزن الرسول صلى الله عليه وسلم على قومه عندما لم يستجيبوا له فقال سبحانه وتعالى: { وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ } سورة آل عمران، الآية 176.

أي أن القرآن الكريم تناول ظاهرة الحزن خصوصا في القصص السردية باعتبار الحزن معطى إنسانيا عاطفيا لا يمكن أن يغيب عن أي قصة أو حكاية هو أو ضده من الفرح و السعادة وغيرها.

أنواع الحزن:

. الحزن ليس على درجة واحدة ولا هو بنوع واحد، بل يتنوع باعتبارات مختلفة، ومن أنواعه مايلي:

1. " الحزن على فوات أمر دنيوي وهذا أمر يجب أن نحرص على أن لا يحدث لأن هذه الدنيا لا تساوي شيء بالنسبة للآخرة فينبغي للإنسان أن يتغلب على هذا الحزن"[2]

[1] – عبد الله الخاطر، الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسنة، جميع حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمنتدى الإسلامي،(د. ط)، (د. ت)، ص16.

[2]– المرجع نفسه، ص 19.

ولذلك يقول سبحانه و تعالى: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَهِ يَسِيرٌ لِكَيْلاَ تَأْسَوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} سورة الحديد، الآية 23 .

وهذا المقياس في الحقيقة شرعي يضع الحزن أمام أعين الفقهاء و الصوفية فيدخل في السلوك و الآداب.

2. " هو حزن مطلوب و يمتدحه الله سبحانه و تعالى وهو الحزن على أمر من أمور الدين، لكنه حزن يدفع إلى العمل مثل: حزن الفقراء في غزوة تبوك الذين جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يحملهم معه إلى الجهاد، فلم يجد الرسول صلى الله عليه و سلم ما يحملهم عليه، فرجعوا وقد أصابهم الحزن والضيق والكدر" [1]. فامتدحهم الله سبحانه و تعالى بقوله: { وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ" سورة التوبة، الآية 92.

وهذه الأحزان ينبغي ألا تستمر بل علينا أن نعتبرها طارئة، ولنتجاوزها إلى حياة العمل و الإنتاج، ولا ينبغي أن يوجد عندنا أعياد حزن وأعياد نكسات نحتفل بها. فهذه بعض أنواع الحزن فقط وإلا فللحزن تمظهرات عديدة جدا لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها.

2 . الحداد:

من المصطلحات القريبة من الحزن نجد الحداد، لذلك ينبغي أن نعرفه لغة وإصطلاحا:

الحداد لغة:

المنع، ومنه: امتناع المرأة عن الزينة وما في معناها إظهارا للحزن و الأسف.

فدلالته اللغوية أو المعجمية تتصل بالمنع فهو منع المرأة نفسها من التزين تعبيرا عن الحزن.

[1] – عبد الله الخاطر، الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسنة، ص20.

اِصطلاحا:

"هو امتناع المرأة عن الزينة وما في معناها مدة مخصوصة في أحوال مخصوصة ومنه امتناع المرأة من البيتوتة في غير منزلها"[1].

. الإحداد له معنى في اللغة ومعنى في الاِصطلاح:

أما معناه لغة : فهو المنع لأن الإحداد صفة تتعلق بالمرأة المحدة فهو يمنعها من كثير مما كان مباحا لها قبله.

قال ابن منظور في قاموس لسان العرب : الحاد و المحدة تاركة الزينة للعدة تقول : حدت تحد وتحد حدا وحدادا وأحدت، ومنه سميّ البّواب حدادا لمنعه الداخل، وسميت العقوبة حدا لأنها تمنع عن المعصية.

وأما معناه في الاِصطلاح :

" فهو أن تجتنب المرأة المعتدة المتوفى عنها زوجها كل ما يدعوا إلى نكاحها ورغبة الآخرين فيها من طيب وكحل ولبس ومطيب وخروج من منزل من غير حاجة "[2] .

. وهذه المعاني فقهية بحتة، لأن الفقهاء هم الذين يهتمون بالحداد بعد وفاة الزوج.

3. الرثاء:

والرثاء أيضا مصطلح ذو صلة وثيقة بالحزن، بل هو فن أدبي جمالي وهو التعبير اللغوي عن معانيها لذا وجب تناوله:

تدور مادة الرثاء في اللغة حول الحزن و البكاء ويقال رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته، ورثيت الميت رثيا ورثاء ومرثاة ومرثية ورثية: مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه، وامرأة رثاثه ورثاية: كثيرة الرثاء لبعلها أو لغيره ممن يكرم عندها وتنوح

[1] – محمد ابن عمر واقد السهمي الأسلمي بالولاء، أبو عبد الله الواقدي، الموسوعة الفقهية الكويتية صادر عن. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى، مطابع دار الصفوة، مصر، ج29، ص305.

[2] – فيحان شالي المطيري، لإمداد بأحكام الحداد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط 16، العدد الثاني والستون ربيع الآخر، جمادى الآخرة، 1404هـ/1984م، ص148،147.

نياحة، وفي الحديث: أنه نهى عن الترثي وهو أن يندب الميت فيقال: وافلاتاه، ويقال: ما يرثى فلان لي أي ما يتوجع ولا يبالي[1]: فنرى أن مادة "الرثاء" تدور حول معنى الحزن والبكاء والندب والتوجع، وورد الفعل رثا مهموزا فيقال: "رثأ " وغير مهموز فيقال: "رثا " ومعناهما واحد فرثأت الرجل رثا: مدحته بعد موته، فالهمز لغة في المادة والمعنى واحد لا يختلف، قال الجوهري: وأصله غير مهموز[2].

. والتعريف اللغوي للرثاء لا يكاد يبتعد كثيرا عن التعريف الإصطلاحي عند النقاد والأدباء.

والرثاء في الاصطلاح: يعني التفجع على الميت والتلهف عليه تعداد مناقبه واستعظام المصيبة فيه.

وقد عرفه شوقي ضيف بأنه: " بكاء يتعمق في القدم منذ وجد الإنسان ووجد أمامه هذا المصير المحزن: مصير الموت والفناء الذي لابد أن يصير إليه فيصبح أثرا بعد عين وكأن لم يكن شيئا مذكورا "[3].

فالرثاء هو بكاء الميت والتفجع عليه والتمجيد لخصاله، وهو يقترن بالموت والزوال وهذا مصير محزن.

فهذه التعاريف تشير إلى مكونات الرثاء وأنواعه التي ستأتي:

. وأما أنواع الرثاء فقد قسمها شوقي ضيف إلى:

. " **الندب**: وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة.

. **التأبين**: وهو الثناء على الشخص.

. **العزاء**: وهو الصبر على كارثة الموت "[4].

---

[1]-ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص 1582.

[2]- المصدر نفسه، ص 185.

[3] - عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، دار الكتب المصرية، جامعة الأزهر المنصورة، ط1، 1411هـ/1990م، ص 4،5.

[4]شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، مصر، ط 4، (د. ت)، ص 12،54،86.

حيث تختلف طبيعة الرثاء باختلاف صلة الراثي بالميت وشخصية المرثي وبالنظر إلى تفاوت حظه من العاطفة والغرض الّذي يرمي إليه قسم إلى ثلاثة أنواع وهذا ما أقربه عمر فاروق الطباع في قوله:

" وهي الأقسام التي أطلق عليها عمر فاروق الطباع: الرثاء العاطفي الندب، والرثاء المديحي التأبين، والرثاء الحكمي العزاء "[1].

. وهذا يعني أن هناك ثراء مصطلحاتي في هذا الباب، فبالإضافة إلى الحزن ومرادفاته والحداد، والرثاء، فهناك الندب والتأبين، والعزاء وغيرها من المصطلحات النقدية التي تعالج ظاهرة الأدب الحزين.

. وعرف أدبنا الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كان النساء والرجال جميعا يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأن ذلك مصير محتوم.

. وأشهر شعراء الرثاء في الأدب العربي:

" المهلهل والخنساء في العصر الجاهلي، وحسان بن ثابت ومتمم بن نويرة في عصر صدر الإسلام، وجرير في العصر الأموي، والمتنبي وابن الرومي وأبو تمام في العصر العباسي، والأخطل الصغير وحافظ ابراهيم ونزار قباني في العصر الحديث "[2] .

– فالشعر الرثائي اشتهر بالعديد من الشعراء عبر مختلف العصور وعلى رأسهم الخنساء التي اشتهرت به في العصر الجاهلي وشاع في الكثير من قصائدها.

2. تمظهرات الأدب الحزين في الأجناس الأدبية:

. تمظهرات الحزن في الشعر العربي القديم:

أولا: على مستوى الأغراض:

[1] عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط 1، 1992م، ص 191،192.

[2] فواز الشعار، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت،(د. ط)، (د. ت)، ص 116.

لا ريب أن الرثاء هو الغرض الشعري الذي يتمظهر فيه الحزن بشكل واضح، ندبا وتأبينا وتعزية، فالرثاء هو ذكر خصال الميت وبكاؤه وتسلية النفس بعد فقده، فبنيته قائمة على عاطفة الحزن، لكن هذا لا يعني أن بقية الأغراض الشعرية تخلو من الحزن، فالغزل مثلا غرض شعري حزين يقوم على الشعور بالحزن والألم بسبب الفراق.

يقول ابن دريد الأزدي:

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍ وَإِنْ وُجِدَ الهوَى حُلْوَ المذَاقِ

تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُـــــــلِّ حِينٍ مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيـــاَقِ

فَيَبْكِي إِنْ نَأَى شَوْقًا إِلَيْهِـــمْ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوا حَذْرَ الفُرَاقِ

فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الفُـــــرَاقِ وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَـلَاقِي[1]

. التعليق على الأبيات:

فهذه الأبيات مشهورة جدا تشير إلى أن الحزن هو جوهر العلاقة الغزلية، فهناك دائما بكاء، إما عند الفراق، وإما عند اللقاء خوفا من اِحتمال الفراق مرة أخرى.

ثانيا: على مستوى المعجم الشعري:

وظف الشعراء عدة ألفاظ للتعبير عن الحزن في أشعارهم، حيث شكلت معجما للغة الشعرية الحزينة، وبالرجوع إلى المعلقات نعثر على نماذج من هذا المعجم كالتالي:

. البُكَاءْ في قول امرئ القيس:

" قِفَا نَبكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَ مَنْزِلِ بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ"[2]

. الأَسَى في قوله:

"وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُـمْ يَقُولُونَ لاَ تَهْلَكْ أَسًى وَ تَجَمَّـلِ"[3]

---

[1] ينظر: ابن القيم، الداء والدواء، حققه: محمد أجمل الإصلاحي خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عام الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1429هـ، ص 492.

[2] الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1423هـ/2002م، ص 35.

[3] المصدر نفسه، ص 37.

. العِبْرَةُ وَهِيَ الدُمُوعْ، في قوله:

"وَإِنَّ شِفَائِيَ عِبْرَةٌ مُهْرَاقَـــةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ"[1]

. النَعْيْ وَشَقْ الجَيْبْ، في قول طرفة بن العبد:

"فَإِنْ مُتُ فَانْعِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُـهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ" [2]

ثالثا: على مستوى الصورة الشعرية:

ودائما مع المعلقات نجد أن الشاعر الجاهلي قد صور الحزن بأشكال مختلفة تفنن فيها فمن ذلك:

قول امرئ القيس:

" فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي"[3]

. فهنا بنى الصورة على المبالغة، فدموعه تفيض حتى تصل إلى محمل سيفه.

وقول طرفة بن العبد:

" إِذَا رَجَعَتْ فِي صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَهَا تَجَاوُبَ أَظْآرٍ عَلَى رُبْعِ رَدِ"[4]

. يقول: إذا طربت في صوتها و رددت نغمتها حسبت صوتها أصوات نوق تصيح عند جؤارها على هالك، شبه صوتها بصوتهن في التخزين، والتوقيق بأصوات النوادب و النوائح على صبي هالك.

وقول عنترة في وصف مقتل فرسه:

" مَازِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْـرِهِ وَلَبَانِهِ حَتَى تَسَرْبَلَ بِالـدَّمِ"

. يقول لم أزل أرمي الأعداء بنحر فرسي حتى جرح و تلطخ بالدم وصار له بمنزلة السربال، أي عم جسده عموم السربال جسد لابسه.

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِـهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَ تَحَمْحُمِ

الأزورار: الميل، التحمحم: من صهيل الفرس ما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له.

---

[1] المصدر نفسه، ص 38.

[2]-المصدر نفسه، ص 117.

[3]- المصدر نفسه، ص 39.

[4]- الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص 106.

قول: فمال فرسي مما أصابت رماح الأعداء صدره ووقوعها به وشكا إلي بعبرته و حمحمته أي نظر إلي و حمحم لأرق له.

. "لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا المحَاوَرَةُ اِشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الكَلاَمَ مُكَلِّمِي"[1]

فالشاعر الجاهلي صور الحزن في كل مظاهره حتى عند الحيوان فقام بأنسنة الحزن.

[1] المصدر نفسه، ص 263.

الفصل الأول: حداد الدم

1- حداد الفقد الأبدي:

- رثاء الأهل والأقارب
- رثاء الأخوة
- رثاء الأبناء
- رثاء الآباء
- رثاء الأمهات
- رثاء الأزواج والزوجات
- رثاء الفقهاء والقادة
- رثاء الملوك و الأمراء
- رثاء العلماء

2- حداد الظعن:

- رثاء الأصدقاء
- رثاء الجواري

تمهيد:

كان فقد الأحباب و الأقرباء و الأصدقاء ممن لهم مكانة خاصة في نفوس بعض الشعراء باعثا قويا للإحساس بالنهاية الحقيقية للحياة، التي هي نهاية السرور وإنطفاء الأمل، ونراهم لهذا السبب يعبّرون عن هذا الفقد بلوعة وأسى شديدين، ولهذا تميز الشعراء عن غيرهم من الناس برقة الإحساس، وشفافية المشاعر المرهفة.

ويعد الموت الحقيقة الثابتة في هذا الوجود لا ينكره أي إنسان وما يترتب عليه من آلام و أحزان.

" ومن الطبيعي أن يحزن الإنسان لفقد عزيز لديه و يبكي مدرارا على هذا العزيز الذي كان بجواره يراه ويتحدث معه و يروح و يغدو أمامه ثم فجأة يتوارى بين أحجار و أستار فلا يراه بعد ذلك " [1] ،فالموت يترك في نفس الإنسان الكثير من الأسى و الحزن و لعلنا لا نجد فقد أعظم يبكيه بحرقة و ألم سواء كان أخا حميما أو شقيقا عزيزا، سواء كان أبا أو أمًّا أو صديقا أو زوجة حبيبة أو زوجا أو ابنا و من هنا نتطرق للموضوع وفق الآتي:

أنماط حداد الدم في الشعر العربي القديم:

1. حداد الفقد الأبدي:

رثاء الأهل و الأقارب:

رثاء الأهل و الأقارب من الموضوعات البارزة في شعرنا، حيث رثى الشاعر أهله و أفراد أسرته، "حين يعصف بهم الموت في فترات متلاحقة و تتجلى في هذا الرثاء العاطفة الصادقة النابعة من قلوب شاعرة جريحة، وتعد الخنساء من أبرز شعراء الرثاء في هذا الإتجاه "[2]، فكل شاعر إلا وأخذته صرخة الموت بين الأهل و الأقارب و الأحباب.

رثاء الأخوة:

[1]- حسين جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق، 1402هـ/1982م، ص 3.

[2]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، 1433هـ/2012م، ص 53.

يعد رثاء الإخوة من الموضوعات القديمة في شعر الرثاء في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حيث راح الشعراء يندبون إخوتهم و يبكونهم بكاء حارا موجعا، وذلك لما للأخ من مكانة عظيمة عند أخيه.

فكانت الخنساء في أول أمرها تقول الشعر ولا تكثر، حتى توفي أخواها معاوية و صخر، فحزنت عليهما حزنا شديدا وكان صخر أحبهما إليها لما كان عليه من الحلم و الجود، و التقدم و الشجاعة و قالت ترثي أخاها صخرا:

"أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلاَ تَجْمُـــدَا أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّـدَى

أَلاَ تَبْكِيَانِ الجَرِيءَ الجَمِيلَ أَلاَ تَبْكِيَانِ الفَتَى السَيِّـدَا

تَرَى المجْدَ يَهْوِي إِلَى بَيْتِهِ يَرَى أَفْضَلَ المجْدِ أَنْ يُحْمَدَا"[1]

. فموت صخر فجر من عينيها دموعا ومن قلبها شعرا هو شعر العاطفة المحبة المتألمة و صرخة حزينة كبيرة على فراقه.

ومن شعر رثاء الإخوة قول أبي تمام يرثي أخاه:

"إِنِي أَظُنُّ البِلَى لَوْ كَانَ يَفْهَمُـهَ صَدَّ البِلَى عَنْ بَقَايَا وَجْهِهِ الحَسَـنِ

يَا مَوْتَةُ لَمْ تَدَعْ ظَرْفًا وَلَا أَدَبًا إِلَّا حَكَمَتْ بِهِ لِلْحَدِ وَ الكَفَـــنِ

لله أَلْحَاظُهُ وَ المَوْتُ يَكْسِرُهَا كَأَنَّ أَجْفَانُه سَكْرَى مِنَ الوَسَـــنِ

يَرُدُّ أَنْفَاسُه كَرْهًا وَ تَعْطِفُـهَا يَدُ المنِيَةِ عَطْفَ الرِيحِ لِلْغُصُـــنِ

يَا هَوْلَ مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي وَ مَـــا سَمِعَتْ أُذُنِي فَلَا بَقِيَتْ عَيْنِي وَ لَا أُذُنِي

لَمْ يَبْقَى مِنْ بَدَنِي جُزْءٌ عَلِمَتُ بِـهِ إِلَا وَقَدْ حَلَهُ جُزْءٌ مِنَ الحَـــزَنِ

كَانَ اللَحَاقُ بِهِ أَوْلَى وَ أَحْسَنُ بِي مِنْ أَنْ أَعِيشَ سَقِيمَ الرُّوحِ وَ البَـدَنِ"[2]

[1] – عباس ابراهيم، شرح ديوان الخنساء، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م، ص 6.

[2] – ديوان أبي تمام، تح، محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1119م، المجلد الرابع، ص 146.

. وأبو تمام في أبياته يبكي حقا و لا يتباكى و يذرف الدموع على أخيه بعاطفة صادقة، حينما رثاه و كله مشاعر ملتهبة، فالحزن يخيم على الأبيات و هذا الحزن يقطع فؤاده.

رثاء الأبناء:

رثاء الأبناء من أهم الموضوعات البارزة في شعر الرثاء العربي، لما فيها من الحرقة و الحزن، ويعتبر الأبناء بمثابة قطعة من أجساد الآباء وفلذة أكبادهم، فرثاء الأبناء أبكى وأندب الرثاء كله.

ومن رثاء الأبناء قول أبي ذؤيب الهذلي التي رثى فيها أبناءه قائلا:

"أَمِنَ للمُنُونِ وَ رَيْبُهَا تَتَوجَعُ وَ الدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعَ"[1]

. فالشاعر في هذا البيت يحمل الكثير من المرارة و المأساة و الإحساس بالخيبة.

فقد ابن الرومي أبناؤه الثلاثة في طفولتهم، و كان أسبقهم إلى الموت ابنه الأوسط محمد الذي رثاه بهذه القصيدة يقول:

"بُكَاؤُكُمَا يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي فَجُودَا، فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمَا عِنْدِي

أَلَا قَاتِلَ الله المَنَايَا وَرَمْيِـهَـــــا مِنَ القَوْمِ حَبَّاتِ القُلُوبِ عَلَى عَمْدِ

تَوَخَى حِمَامُ المَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِـي فَلِلَهِ كَيْفَ اِخْتَارَ وَ اسِطَةَ العِقْـــدِ

عَلَى حِينَ شِمْتُ الخَيْرَ مِنْ لَمَحَاتِهِ وَآنَسَتْ فِي أَفْعَالِهِ آيَةَ الرُشْـــــدِ"[2]

. القصيدة تقر بصدق تام، يخاطب ابن الرومي عينيه لتجودا بالدموع على فلذة كبده التي ذهبت و لن تعود بكل ألم و حرقة عليه، و يسأل الله أن يقاتل المنايا على فقده.

وكذلك يرثيه في وصف مشهد الإحتضار:

"أَلَحَّ عَلَيْهِ النَزْفُ حَتَى أَحَالَـــهُ إِلَى صُفْرَةَ الجَادِي عَنْ حُمْرَةِ الـــوَرْدِ

وَظَلَ عَلَى الأَيْدِي تَسَاقَطُ نَفْسُهُ وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي القَضِيبُ مِنَ الرَّنْدِ

فَيَالَكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقَطُ أَنْفُسِـا تَسَاقُطَ دُرٍ مِنْ نِظَامٍ بِلَا عَقْـــــدِ

[1]- فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية كلية الدراسات العليا، 1423هـ/2002م، ص 38.

[2]- أحمد فاضل، تاريخ وعصور الأدب العربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م، ص 317.

عَجَبَتُ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنَ الحَجَر الصَّلْـــــدِ"[1]

. ينتقل ابن الرومي في أبياته إلى وصف مشهد احتضار ولده، واصفا كيف لازمه النزف و كيف ألبسه لون المرض و الموت، ويصور ابنه في وداع مأساوي من طرف أحبائه و هو يذوي كأنه قضيب الرند.

ومن شعر رثاء الأبناء في العصر العباسي الأول قصيدة أبي تمام التي رثى فيها ولده فقال:

"كَان الّذِي خِفْتُ أَ نْ يَكُونَا إِنَا إِلَى الله رَاجِعُونَـــا

أَمْسَى المرْجَى أَبُو عَلِـــــــي مُوسِدًا فِي الثَرَى يمَينَـا

حِينَ اِنْتَهَى وَ اِسْتوَى شَبَابَـا وَحَقَقَ الرَأْيُ وَ الظُنُونَا

أَصْبَتَ فِيه وَكَانَ عِنْـــــدي عَلَى المصِيبَاتِ أَنْ يُعِينَا

كُنْتُ عَزِيزَا بِهِ كَثِيـــــــرَا وَكُنْتُ صَبًا بِهِ ضَنِينَـا

دَافَعْتُ إِلاَّ المنَونَ عَنْـــــهُ وَ المرْءُ لَا يَدْفَعُ المؤُنَا" [2]

. يصور أبو تمام في هذه المرثية ابنه الذي كان يخاف عليه من الموت إلا أنه بين عشية و ضحاها قد فارقه و ادر الحياة، فرضى بقضاء الله و قدره.

ونجد ابن الرومي يصور معزَّة الأبناء و مكانتهم في قلوب آبائهم يقول:

وأولادنا مثلُ الجَوارح أيُّها فقدناه كان الفاجع البَيِّنَ الفقدِ

لكلٍّ مكانٌ لا يسُدُّ اختلالهُ مكانُ أخيه في جَزُوعٍ ولا جلدِ

هلِ العينُ بعدَ السَّمع تكفي مكانهُ أم السَّمعُ بعد العينِ يهدي كما تهدي "[3]

. فالأولاد كالأعضاء في الجسم الواحد لا يمكن الفصل بينهما، فالشاعر بكى وذرف الدموع بغزارة على ابنه الحبيب الذي فقده، ويؤكد أنه سيظل يبكيه حتى آخر نفس من حياته.

[1] – أحمد فاضل، تاريخ وعصور الأدب العربي، ص 318.

[2]– عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 66.

[3]– عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول ، ص 70.

ورثى المعتمد بن عباد ولدين له، بقصيدة جزع فيها على فراقهما جزعا شديدا، فقد قتلا و هما في مقتبل العمر يقول:

"يَقُولونَ صَبراً لا سَبيلَ إِلى الصَبرِ سَأَبكي وَأَبكي ما تَطاوَل مِن عُمري

هَوى الكَوكَبانِ الفَتحُ ثُمَّ شَقيقُهُ يَزيدُ فَهَل بَعدَ الكَواكِب مِن صَبرِ؟

تَوَلَيتُما وَالسنُّ بَعدُ صَغيرَةٌ وَلَم تَلبثِ الأَيّامُ أَن صَغَّرت قَدري

فَلَو عُدتَما لاخترتُما العودَ في الثَرى إِذا أَنتُما أَبصَرتُمانيَ في الأَسريِ"[1]

. فهذه الأبيات في غاية التفجع على المفقود و التساؤل المحير بعد رحيله.

فقيه الأندلس الشاعر أبو الوليد الباجي الذي رثى ابنه محمد قائلا:

"أمَحمدُ إن كُنتَ بعدك صابرا صبرُ السليم لما به لا يسلم

ورزئت قبلك بالنبي محمـــــد ولرزؤه أدهى لدي وأعظـم

فلق علمت أنني بك لاحــق من بعد ظني أنني متقـــدم"[2]

. الباجي في هذه الأبيات يتفجع بموت ابنه محمد، فهو يصبر نفسه بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونلاحظ هنا طغيان النزعة الدينية على الباجي.

ويرثي الحصري القيرواني ابنه الذي مات في التاسعة من عمره من قوله فيه:

"ذوى ريحاني الأرج وضاق بخلي الفرج

ذبيح طل منــه دم ولم يقطع منه ودج

رأيت دماءه ودمـا ء عيني كيف تمتزج

ترفق يا سقام بـه أبعد المستوى عوج"[3]

معنى "ودج" في معجم لسان العرب لابن منظور: الودج: عرق متصل

[1] – سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 55.

[2] –فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 45.

[3] – فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 46.

. فالحصري في هذه الأبيات حزين مختنق ولهيبا مشتعل في قلبه على رحيل ابنه، وأحس عندما بكى عليه كأن دموعه اِختلطت بدماء ولده النازفة.

ونخلص من كل هذا إلى أن رثاء الأبناء أحزن أنواع الرثاء لأنه يعبر عن أحاسيس وآلام الشاعر فموت الأبناء يشعر الآباء أنهم فقدوا ركنا هاما من حياتهم.

رثاء الآبـاء:

يعتبر رثاء الآباء من الموضوعات الرثائية القديمة التي عرفها الشعر العربي، وليس هناك تفجع وحزن من الابن على أبيه، " فالأب هو المعيل لأسرته الراعي لها، وهو الناصح الأمين، و الركن المتين الذي بفقده تفقد الأسرة رأسها ومعيلها وحاميها، ولذا ليس غريبا أن يهتم الشعراء بذكر مآثر آبائهم، وقد تأثر الشعراء الأندلسيون كغيرهم بفقد آبائهم ورثوهم بقصائد عبروا فيها عن آلامهم و أحزانهم"[1].

ومن هنا يكون صعبا على الأسرة فقدان هذا الهرم الكبير الذي تبنى عليه، وبالخصوص الحزن و الأسى في نفوس الأبناء.

ولعل أبرز الشعراء الذين أفاضوا في رثاء آبائهم إسحاق بن ابراهيم الموصلي يرثي أباه بقوله:

" سَلامٌ على القَبرِ الذي لا يُجيبُنا ونـــحنُ نُحيِّيـ تُـــربَه ونخاطـــب
ستَبكيه أشرافُ الملوك إذا رأوا مَحَلَّ التَّصـتتابي قد خلا منه جانِبُه
ويَبكِيه أهلُ الظَّرفِ طُرّاً كما بكى عليهِ أميـــرُ المؤمنينَ وحـــــاجبُه
ولما بدا لي اليأسُ مِنهُ وأنزفَت عُـيونُ بَواكيـــه ومَلَّت نَـــــوادبُه
وصار شفاءُ النَّفس من بعض مابها إفـاضـةَ دمعٍ تَستَهِلُّ ســـــواكبُه
جعلتُ علىعَينيَّ للصُبح عَرةً ولِلّيلِ أخرى ما بَدَت لي كـــــواكبُه" [2]

. فالشاعر يرثي أباه ابراهيم الموصلي و يبكيه بكاء حارا وينزف عليه الدمع ليلا نهارا، فهو باك حزين لفقد والده بعاطفة جياشة صادقة، ويذكر عظم المصيبة فيه.

[1]- مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، كانون الثاني، 2010م، ص 11.

[2]- عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 79.

ومن رثاء الآباء ما قاله أبو عباس أحمد بن شكيل على والده أبا الحكم يقول:

" حَذارِ حَذارِ مِن رُكونٍ إِلى الزَمَن فَمَن ذا الَّذي يُبقي عَلَيهِ وَمَن

أَلَم تَرَ لِلأَحداثِ أَقبَلَها المنى وَأَقتُلَها ما عَرَّضَ المرءَ لِلفِتَن

تُسَرُّ مِنَ الدُنيا بِما هُوَ ذاهِبٌ وَيَبكي عَلى ما كانَ مِنها وَلَم يَكُن

أَرى دارَنا لَيسَت بِدارِ إِقامَةٍ أَرَدنا نَواءً عِندَها وَهيَ في ظَعَن"[1]

. فالشاعر في هذه الأبيات يحذر من الدنيا الزائلة، التي ما أعطت إلا و أخذت وما أسرت إلا وأحزنت، تسر حينا و تبكي أحيانا ولا نجاة لأحد من الموت.

ورثى ابن حمديس أباه إذ يقول:

"يدُ الدهرِ جارحةٌ آسيَهْ ودنْيَاكَ مُفْنِيَةٌ فانيَه

رأيتُ الحِمامَ يبيدُ الأنامَ وَلَدْغَتُهُ ما لها راقيه

وأرواحنا ثَمَرَاتٌ له يَمُدّ إليها يداً جانيَه

سقى اللّه قبر أبي رحمةً فسقياهُ رائحةٌ غاديه

بكيتُ أبي حقبَةً والأسى عليّ شَواهدُهُ باديه

وما خمدتْ لوعةٌ تلتظي ولا جَمَدَتْ عَبرةٌ جاريه"[2]

. فالأبيات تفيض حزنا ولوعة، والدليل على ذلك المعجم الذي وظفه الشاعر على غرار الأسى . لوعة جارحة . لدغ.

وتبين لنا مما سبق أن رثاء الآباء هو الشعر الذي يتناول فيه الشاعر بذكر مناقبهم و حنانهم، والملاحظ أيضا أن الشعراء في رثائهم لآبائهم كانوا حريصين على بيان صفات آبائهم الحسنة،

[1]- مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 14.

[2]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 54.

كالكرم و الشجاعة و غيرها ثم يدعون الله الرحمة لأولئك الذين أفضوا إلى ما عملوا لعل الله يرحمهم و يجعل مصيرهم الجنة[1].

. فالشعراء رثوا آبائهم اِنطلاقا من مجموعة الصفات التي كانوا يتحلون بها.

رثاء الأمهـات:

كانت الأم وما تزال من أكثر الناس حنانا و حبا على أبنائها، وقد أوصانا الله تعالى بالوالدين إحسانا، وقد كان الشاعر الحكيم الداني و هو أمية بن عبد العزيز الداني من أكثر شعراء الأندلس الذين وصلت مراثيهم إلينا وفاءا لأمه، والتي بقيت له الذكرى الوحيدة من أهله ووطنه الأندلس.

وقد بدأ الداني قصيدته مخاطبا دموعه، وطالبا منها أن تستبدل الدمع بالدم مبينا أنه فارق أحب الناس وأكثرهم وفاءا له يقول:

" مَدامعَ عَيني اِستَبدلي الدَمعَ بِالدَم وَلا تَسأَمي أَن يَستهلّ وَتسجمي

لحقّ بِأَن يَبكي دَماً جَفنُ مُقلَتي لأَوجَب من فارقتَ حَقّاً وَأَلزَمِ

أَخِلّاءَ صِدقٍ بَدّدَ الدَّهرُ شَملَهُم فَعادَ سَحيلا مِنهُم كُلّ مُبرَمِ "[2]

. تبين لنا من خلال هذه الأبيات استبداله الدمع بالدم لأنه فارق أحن الناس إليه و هي أمه والحزن عليها وهذه الحرقة التي تتقطع لها الأحشاء وتتمزق لها الأكباد.

ويشكل فقد الأم عند الأبناء جرحا داميا ينزف، وقد عبر الشعراء عن أثر هذا الفقد بصور شتى، واختلفوا في هذا التعبير بِاختلاف ظروف الفقد ذاتها.

ويقول أيضا أمية بن عبد العزيز الداني في موت أمه:

"رزنت بأحفى الناس بي وأبرهم وأكبر بفقد الأم رزء وأعظـــــم

فأصبح در الشعر فيك منظمـا وأصبح در الدمع غيـــــر منظـم

تصرم أيامي وأما تلهفـــــــي فبات على الأيـــــام لم يتصـرم

[1] – ينظر: مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 21.

[2] – مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 45.

كأن جفوني يوم أودعتك الثرى تضحن على جيب القميص بعندم

تهيج لي الأحزان كل فلا يـرى سوى موجع لي باد كارك مؤلـــم"[1]

. مصيبة الداني في موت أمه كبيرة، فعواطف الأم تنحني لها كل المشاعر، وحزنه الشديد عليها، وعبر عن دموعه بأنها غير منتظمة دلالة على كثرتها وبقائها مادامت الذكريات تحاصره.

يقول أحمد شوقي في رثاء أمه:

"إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما أصاب سويداء ومـا أصمـــــــى

من الهاتكات القلب أول وهلـــــــة وما داخلت لحما ولا لامت عظمـا

تواردوا الناعي فأوجست رنـــــــة كلاما على سمعي وفي كبدي كلمـــا

فما هتفا حتى ترا جنب وانـــــزوى فيا ويح جنبي كم يسيل وكم يدمـــى

إذا طويت بالشهب والدهم شقـــة طوى الشهب أو جاب الغدافية الدهما"[2]

. فهو يشكو إلى الله غربته، ذاك السهم الذي أصاب فؤاده وجرح كبده وأدمى جنبه، وقد وصل سريعا و طوى البلاد حتى وصل إليها.

رثاء الأزواج والزوجات:

رثاء الأزواج و الزوجات موضوع من موضوعات الرثاء القديمة التي عرفها الشعر العربي، إلا أنها قليلة لا تبلغ رثاء الأبناء و الإخوة وبقي ذلك في العصر العباسي الأول.

يقول جرير في رثاء زوجته:

[1] – فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 58.

[2] – عبد الناصر محمد السعيد، رثاء الأم في الأدب العربي الحديث، (د. ش)، جامعة الأزهر، طبعة 2000، ص 96.

لَولا الحَياءُ لَعادَني اِستِعبارُ وَلَزُرتُ قَبرَكِ وَالحَبيبُ يُزارُ
وَلَقَد نَظَرتُ وَما تَمَتُّعُ نَظرَةٍ في اللَحدِ حَيثُ تَمَكَّنَ المِحفارُ
وَلَّهتِ قَلبي إِذ عَلَتني كَبرَةٌ وَذَوُو التَمائِمِ مِن بَنيكِ صِغارُ
أَرعى النُجومَ وَقَد مَضَت غَورِيَّةً عُصَبُ النُجومِ كَأَنَّهُنَّ صِوارُ" [1]

. ففي هذه الأبيات أصيب جرير بأعز من يملك بفقده زوجته أم حزرة، فكانت الفاجعة ومضى بها الموت بعيدا، وهو في حزن يبكي عليها أذاقته الحياة هموما جديدة، بات كالأولاد الصغار بحاجة إلى عطفها و حنانها.

ومن رثاء الأزواج قول لباية بنت علي المهدي ترثي زوجها الأمين بن الرشيد حينما قتل فقالت ترثيه:

"أَبكيكَ لا لِلنعيمِ والأنسِ بَل لِلمعالي والرمحِ والفرسِ
أَبكي على سيّد فُجعتُ بهِ أَرملني قبلَ ليلة العرسِ
يا فارِساً بِالعراءِ مطّرحاً خانَتهُ قوّادهُ مع الحرسِ
مَن للحروبِ الّتي تكون بهِان أضرمت نارها بلا قبسِ
مَن لِلَيتامى إذا همُ سغبوا وَكلّ عانٍ وكلّ مُحتبسِ
أَم مَن لبرٍّ أَم من لفائدةٍ أَم مَن لذكرِ الإله في الغَلَسِ[2]"

. المرثية ندب وتحسر على الزوج من زوجته، فهي تذرف الدمع وتتوجع لفقدها زوجها وحبيبها هذا الحبيب الذي تبكيه للمعالي لا للنعيم والأنس.

إن هذه الأبيات فيها نيران الحزن الموجع والحسرة الكبيرة لفقدها زوجها وتخرج منها الآهات و الآلام التي تعبر عن حزن عميق.

وهذه بوران بنت سهل زوجة المأمون ترثيه بقولها:

[1] – عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 1412هـ/1992م، ص 251.
[2] – عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 95.

"أسعداني على البكا معلنينـــا صرت بعد الإمام للهم قينـــا

كنت أسطو على الزمان فلما مات صار الزمان يسطو علينا"[1]

. صرخة بكاء ولطمة حزن تبعثها الزوجة على زوجها بعد أن فقدته فأورثها الهم والحزن طيلة حياتها.

وأما رثاء الأزواج لزوجاتهم فهناك نماذج بكى فيها الشعراء زوجاتهم بكاء حارا مصورين شدة جزعهم وحسرتهم نحوهن.

ومن ذلك رثاء مسلم بن الوليد لزوجته التي جزع عليها جزعا شديدا حين ماتت، وأنشأ يقول:

"بُكاءٌ وَكَأسٌ كَيفَ يَتَّفِقانِ سَـبيلُهُما في القَـلبِ مُختَلِفانِ

دَعاني وَإِفراطَ البُكاءِ فَإِنَّني أَرى اليَـومَ فيهِ غَيرَ ما تَـرَيانِ

غَدَت وَالثَرى أَولى بِها مِن وَلِيِّها إِلى مَـنزِلٍ ناءٍ لِعَينِـــكِ دانِ

فَلا وَجدَ حَتّى تَنزُفَ العَينُ ماءَها وَتَعـــــرِفَ الأَحشاءُ بِالخَفَقانِ

وَكَيفَ بِدَفعِ اليَأسِ وَالوَجدِ بَعدَها وَسَـــهماهُما في القَلبِ يَعتَلِجانِ"[2]

. ففي هذه الأبيات تعبير عن الحزن والأسى واعتراف صريح بحب الشاعر ووفائه لزوجته حتى بعد وفاتها.

يشغل رثاء الأهل و الأقارب الحيز الكبير في نفوس الكثير من الشعراء، "والذي لاشك فيه أن رثاء الأهل في الشعر العربي كثير ونابض بالحياة، ورثاء الأبناء أشد لوعة وألما وحرقة، ومع كثرة الرثاء في الشعر العربي للأبناء و الإخوة قل ما نجد فيه بكاء لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت ويرجع ذلك إلى أن الشعراء تعودوا تقليدا للجاهليين، ألا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وألا يبكوا عليهن"[3].

[1] – – عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول ، ص 96.

[2] – المرجع نفسه ، ص 97.

[3] –عبد الرشيد عبد العزيز سالم، شعر الرثاء العربي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1982م، ص 14.

. وقد ندب الشعراء أهلهم وذويهم، وبكوا وأبكوا الناس على الراحلين وأدركوا أن الرحيل قريب، وأن مصيرهم إلى حفرة مظلمة.

وفي الأخير نستنتج أن رثاء الأهل و الأقارب تميز بعاطفة تفيض بالحزن والأسى و المرارة و الألم فتراوحت العاطفة بين القوة والضعف حسب منزلة المرثي.

رثاء الفقهاء والقادة:

لقد توزعت المراثي واختلفت عند الشعراء عبر فئات مختلفة، وهذا حسب تفاوت حظها من العاطفة، حيث يختلف رثاء الفقهاء والقادة عن غيره من أصناف الرثاء، "يشكل صورة اجتماعية، فالفقيه الذي يقول كلمة الحق في كل المواقف يشكل موته كارثة للأمة، وبالتالي تنطلق ألسنة الشعراء معبرة عن هذا الحادث الذي أصاب الأمة في صميم قلبها بقصائد تفيض بالألم والدموع، وقد رثى الأندلسيون فقهاء وقادتهم وأشادوا بمنزلتهم"[1].

. فالشعراء بكوا وتفجعوا على فقهائهم وقادتهم بكل حرقة وتوجع وألم، باعتبارهم كانوا يمثلون مرآة للمجتمع، وهذا بفضل بطولاتهم ومنزلتهم سواء على المستوى العلمي أو السياسي.....إلخ.

ومن أبرز المراثي التي قيلت في رثاء الفقهاء، رثاء الفقيه العالم اللغوي ابن سراج الذي رثاه أبو عبد الله جعفر بن مكي بن أبي طالب القيسي بقوله:

"أنظر إلى الأطواد كيف تزول والحالة العلياء كيف تحـــول

الموت حتم والنفوس ودائـــع والعيش نوم والمنى تضليـــــل

لا يعصم العصماء منه شاهق صعب ولا الورد البستني غيل

يروي فما شوي الرمية بتلـــه فيصاب تنبال به وتنبيـــــل

تهوى الفتى طول البقاء مؤملا وله رحيل ليس عنه قفـــــول

يلهو ويلعب مطمئنا ذاهـلا وله رسيم نحوها ودميـــــــــل"[2]

[1] – فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 92.

[2] –المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

. وفي هذه القصيدة يؤكد الشاعر على حتمية الموت، وقد وظف الشاعر الأساليب بين الخبر والإنشاء للتأثير والإقناع، كالطباق في قوله: الموت والعيش، للتأكيد على حقيقة الموت والزوال الذي لا منجاة منه.

وفي رثاء الفقيه ابن عشرة، قال الشعراء الكثير من المراثي الذي رثاه ابن سوار الأشبوني ومنها هذه القصيدة التي استهلها قائلا:

"العيش بعدك يا علي نكـــــــال لا شيء منه سوى العناء ينال

يا عثرة عثر الزمـــان بأهلـــــــه ليت الزمان من الزمان يقــال

يا عصمة الفقـــراء بل يا مالهـم هيهات ما للناس بعدك مــال

أبكيك بالدم لا بدمعي إنـــــــه يبكي سواي به وذاك محـــال

دنيا ظفرت وما متاعك كلـــــــه إلا سراب يضمحـــــــل وآل

كنت الصفوح عن المسيء ولم يكن إلا الجميل لديك والإجمـــــال

حطوا على الأكوار قدمات الـذي يتحمل الأعباء وهي ثقـــــال

وتهدم الجبل المنيف فزلزلـــــــت رتب العلا ومن الرجال رجال"[1]

. يتفجع ويتألم الأشبوني تألما شديدا على فقدان ورحيل صديقه وأنيسه ابن عشرة ويشعر الأشبوني بعظم المصيبة التي حلت به، بوفاة هذا الفقيه الذي اِمتاز بالعديد من الصفات جعلته مميزا عن غيره.

هذه لمحة موجزة عن رثاء الفقهاء أما رثاء القادة الأبطال لدينا نموذج الوزير أبي الخطاب يرثي أبا حفص الهوزني أحد قادة الأندلس قوله:

"نبأ به وافى البريد فظيـــــع صدع القلوب حديثه المسموع

وافى فكل تجلد متعـــــذر أسفا وكل تصبر ممنـــــــوع

طلعت بمطلعه عليّ غياهب لم يبد فيها للسرور طلـــــوع" [1]

[1]- فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 94.

. يصور الشاعر في هذه الأبيات الثلاثة حزنه وآلامه عند وقوع خبر الوفاة عليه، وإحساسه بالخيبة والقهر وأكباده تحترق، فوظف الكثير من الألفاظ الدالة على ذلك: خبر فظيع، قد صدع القلوب، فقد جاءت الألفاظ منسجمة مع إحساس الشاعر.

. رثاء الملوك والأمراء:

ومثل هذه المراثي قوية في الصياغة، صادقة في عاطفتها حينا وضعيفة حيتا آخر، فمن النوع الأول مرثية ابن عبد الصمد للمعتمد بن عباد، وأنشد قصيدته الدالية التي تعد من عيون الشعر اِستهلها بقوله:

"ملك الملوك أسامع فأنـــــــادي أم قد عدتك عن السماع عواد

لما خلت منك القصور ولم تكـــــن فيها كما قد كنت في الأعيـاد

أقبلت لك في هذا الثرى لك خاضعا واتخذت قبرك موضع الإنشاد"[2]

. ومن هنا خر الشاعر على الأرض يبكي ويعفّر وجهه بالتراب، فبكى الناس من حوله حتى جفّت مآقيهم وارتفع نشيجهم وعويلهم.

ومن النوع الثاني ما قاله ابن زيدون في رثاء الأمير أبي الحزم بن جهور منها:

"أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى قلوب مناها الصبر لو ساعد الصبر

دع الدهر يفجع بالذخائر أهلـــه فما لنفسي مذ طواك الردى قــدر

فلا تبعدن إن المنية غايـــــــة إليها التناهي، طال أو قصر العمـر" [3]

. فهذا رثاء يفتقر إلى العاطفة الصادقة لكونه يصدر عن شاعر من شعراء البلاط، ويبدو عليه التكلف رغم جودة نسجه.

---

[1] – فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 95.

[2]– سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 56.

[3]– المرجع نفسه، ص 57.

. رثاء العلمـاء:

تعتبر فئة العلماء ركيزة من أهم الركائز الأساسية التي تبنى عليها المجتمعات، فهي تساهم بدورها في نشر مختلف العلوم والفضائل والأسس القيمة، فقد نظم الشعراء العديد من القصائد فيهم، وأكثرهم ضرب المراثي.

"تتميز قصائد رثاء العلماء أنها تبين مكانة العلماء من المجتمع، فهم عماد المجتمع والذين تقع عليهم مسؤولية إعداد الأمة إعدادا صحيحا سليما، لذلك حظي العلماء بمكانة مرموقة في عصري المرابطين والموحدين وشكل فقدهم خللا في بنية المجتمع"[1].

. ويلاحظ أن قصائد رثاء العلماء بينت مكانة العالم وسط مجتمعه، حيث اعتبروه بمثابة الناصح المرشد الذي يبني قاعدة المجتمع.

"وللعلماء والأدباء مكانة كبيرة في نفوس الشعراء عبر مختلف العصور ودواوين الشعر القديمة مليئة بتأبينهم وذكر أفضالهم على العلم والأدب والإشادة بأعمالهم وأقوالهم"[2].

. فرثاء العلماء والأدباء وتأبينهم أجود ما تفيض به النفس، فاستأثروا بكثير من مراثي شعرائنا في القديم، فتأبينهم أشبه ببكاء الأخوة ونواح الأهل والأبناء.

فقد رثى الرصافي أبا العباس بقصيدة تفيض أسى ولوعة على فقد هذا العالم وقد خاطب الشاعر أهل البلاغة، سائلا عن قس إياد الخطيب وكأنه يشبه المرثي به فيقول:

"أبني البلاغة فيم حفل النادي هيها عكاظ فأين قس إيـاد

أما البيان فقد أجر لسانـه فيكم بفتكته الحمام العـادي

حطوا على الطريق فقد خبا لألاء ذاك الكوكب الوقـاد" [3]

. فالشاعر في الأبيات السابقة يسأل أهل البلاغة بلسان المستنكر، الذي يرى أن أهل البلاغة لا قيمة لِاجتماعهم، ثم تساءل عم قس الإيادي، فالشاعر يصور ما تبقى من علماء بعد أبي العباس

[1] – مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 108.

[2]– عبد الرشيد عبد العزيز سالم، شعر الرثاء العربي، ص 34.

[3]– المرجع السابق، ص 108.

بالعلماء الذين كانوا يجتمعون في سوق عكاظ، وكذلك الحال لأهل البلاغة حتى أصاب الموت خطيبهم وكبيرهم أبي العباس.

وللرصافي قصيدة أخرى في رثاء شخص اسمه عبد الإله فالمرثي من العلماء إذ يقول:

"لعلك والعلوم مغنيات نسيت هناك بالغنم الإيابا

أيا عبد الإله نداء يأس وهل أرجو لدى رمس جوابا"[1]

. لا تقل هذه القصيدة عن سابقيها في الصدق الفني، وفي جودة التعبير، ومما يلفت الانتباه ويدمي العين ويحزن القلب.

ويقول أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج، يرثي الإمام مالكا:

"سقى حدثا ضم البقيع لمالك من المزن مرعاد السحائب ميسراق

إمام موطأه الذي طبقت به أقاليم في الدنيا فساح وآفـــاق

أمام به شرع النبي محمـــد له حذر من أن يضام وإشفـــاق

له سند عال صحيح وهيبة فللكل منه حين يرويه إطـــراق"[2]

. فالأبيات تأبين للإمام مالك وإشادة بعلمه وكتابه "الموطأ "، فالشاعر يدعوا لقبر الإمام بالسقيا على عادة الشعراء القدامى، حيث يشيد بعلمه إشادة عظيمة.

ويقول ابن العلاف يرثي المبرد وينصح المتعلمين أن يتذوقوا من علم ثعلب وأدبه فيقول:

"ذهب المبرد وانقضت أيامـــه وليذهبن إثر المبرد ثعلـــــب

بيت من الآداب أصبح نصفه خربا وباقي بيتها فسيخـــرب

فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا للدهر أنفسكم ما يسلـــــب

وتزودا من ثعلب فبكأس مـــا شرب المبرد عن قريب يشـرب

وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسـه إن كانت الأنفاس ما يكتـب"[3]

[1]- مهدي عواد الشموط، الرثاء في الأندلس في عصري المرابطين والموحدين، ص 110.

[2]- عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 117.

[3]- عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 118.

. وهذه الأبيات تأبين للمبرد وإشادة بعلمه، حيث يتعرض بالدعوة للانتفاع من علم ثعلب، ويلاحظ على الأبيات أنها خالية من تعداد فضائل المرثي، والصفات التي كان يتحلى بها، حيث نجد التكلف واضحا في الأبيات.

وفي الأخير نلاحظ أن في رثاء العلماء الشعراء يتعرضون لذكر المناقب والفضائل أكثر من البكاء والندب والتفجع.

وللشاعر الأندلسي لون آخر من المراثي، هو رثاء الوزراء والعلماء ومن ذلك رثاء ابن عبدون للوزير الفقيه أبي مروان بن سراج:

"ما منك يا موت لا واق ولا فادي الحكم حكمك في القاري وفي البادي

يا نائم الفكر في ليل الشباب أفق فصبح شيبك في أفق النهى جـــاري

سلني عن الدهر تسأل غير إمعــة فألق سمعك وإستجمع لإيـــــــرادي

نعم هو الدهر ما أبقت غوائلـــه على جديس ولا طسم ولا عـــــاد"[1]

. ويلاحظ على هذا الرثاء أنه يفتقر إلى العاطفة، لكونه يرتكز على الوعظ والإرشاد، وضرب الأمثال بالأمم التي أفناها الدهر، فضلا عن الحكمة.

ويتجه رثاء العلماء إلى سرد مآثر المرثي وأعماله، ووشيها ببعض الأساليب البيانية أو البديعية ومنه مرثية في الفقيه مروان بن سراج بقوله:

"أودى سراج المجد وابن سراجـه فلنور شمس المكرمات أقـول

لو كان علم الدين يبكي متيــا لبكى الحديث عليه والتنزيل"[2]

2. حـداد الظعـن:

لطالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة، ففراق الأحبة يؤثر في المحب كثيرا ويجعله أكثر إشتياقا ويزداد حزنه وألمه بسبب فقده لمحبوبته وأصدقاءه.

[1]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 55.

[2]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، ص 55.

1. رثاء الأصدقاء:

الصداقة، علاقة نبيلة تجمع بين شخصين أو أكثر، وغالبا ما تتحلى هذه العلاقة بالمودة والمحبة، ويعد رثاء الأصدقاء تعبيرا عن عاطفة الصداقة السامية بما تنطوي عليه من معاني الوفاء والتضحية، وفي هذا الرثاء يبكي الشاعر صديقه في أخلاقه النبيلة، ويفيض في وصف خسارته بفقد هذا الصديق.

ومن شعر الرثاء للأصدقاء في العصر العباسي الأول ما قاله بشار في رثاء أصدقاء له من الزنادقة ويقول في ذلك:

"يا بن موسى فقد الحبيب على العيـ ـن قذاة وفي الفؤاد سقـام

كيف يصفر لي المقام وحيـــــد والأخلاء في المقابر هـام

نفستهم على أم لمنـايـــــــا فأنا متهم بعتق فنامــوا

لا يفيض اِنسجام عيني عليـهم إنما غاية الحزين السجام"[1]

. يرثي بشار في هذه الأبيات خمسة أصدقاء له ماتوا كلهم رثاء حارا ويبكي لفقدهم ويذرف عليهم الدمع أنهارا، فالأبيات تفيض حزنا وتقطر ألما وحسرة على هؤلاء الأصدقاء الذين فرق الموت بينهم وبينه.

ويقول أبو العتاهية يرثي صديقه علي بن ثابت:

"ألا من لي بأسك يا أخيـــا ومن لي أن أبثك ما لديـــا

طوتك خطوب دهرك بعد نشر كذاك خطوبه نشرا وطيـــا

كفى حزنا بفقدك ثم إنـــــي نفضت تراب قبرك من يديا

بكيتك يا علي بدمع عينـــي فما أغنى البكاء عليك شيا

وكانت في حياتك لي عظـات فأنت اليوم أوعظ منك حيا" [2]

[1] – عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 109.

[2] – عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 110.

. المرثية بكاء حار من الشاعر على صديقه وفيها النيران التي تفتت الأكباد حزنا وحسرة على المرثي، فالشاعر حزين مهموم لفراق صديقه يبكي عليه ويرثيه بكل مشاعره وأحاسيسه الصادقة ويتفجع عليه.

يقول ابن خفاجة متوجعا لوفاة الإخوان والأتراب:

"ألَا عرس الإخوان في ساحة البلى وما رفعوا غير القبور قبابـــــا

فدمع كما سح الغمام ولوعـــــة كما أضرمت ريح الشمال شهابا

إذا استوقفتني في الديار عشيـــــة تلذذت فيها جيئة وذهـابـــــا"[1]

. الواضح أن ابن خفاجة في هذه الأبيات يقرر مصير أصحابه الذين قضوا ولم يبقى لهم غير القبور التي تشبه القبابا، ولم يكن أمام الشاعر إلا الذهاب والإياب حائرا على مصير أصحابه الذين ذهبوا إلى غير عودة.

ويقول ابن خفاجة أيضا:

أكر بطرفي في معاهد فتيـــــــة ثكلتهم بيض الوجوه شبابـا

فطال وقوفي بين وجد وزفـــــــرة أنادي رسوما لا تحير جوابا

وحسبي شجوا أن أرى الدار بلقعا خلاء وأشلاء الصديق ترابا"[2]

. فالشاعر في هذه الأبيات تبين أنه كان يتردد على قبور أصدقائه وينادیهم ولكن لا جواب، ولا يجد إلا الدار وقد أقفرت من ساكنيها وصارت خالية، ليس بها إلا أشلاء الأصدقاء التي علاها التراب.

2. رثاء الجواري:

فكان للجارية نصيب كبير من وفاء أصحابهن ومحبيهن حتى كثر شعر شعراء العصر فيهن رثاء وبكاء وندبا وتعبيرا واضحا عن حزنهم تجاه هؤلاء الجواري وكانت كثير من هؤلاء الجواري على

[1]- مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 133.

[2]-المرجع نفسه، ص 134.

ثقافة عالية وعلم كبير مما قربها من قلوب الشعراء واستأثرت بقلوبهم ونظموا فيهن أشعارا كثيرة تعبر عن حبهم لهن في حياتهن وأشعارا تبكي عليهن وترثيهن بعد وفاتهن.

وأبو نواس يرثي جارية يقول:

"أقول لقبر زرته متلئمـــــــــا سقى الله العفو صاحبة القبـــــر

لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى وشمس الضحى بين الصفائح والقفر

عجبت لعين بعدها ملت البكـا وقلب عليها يرتجى راحة الصبـــــر"[1]

. فأبو نواس يرثي جارية من الجواري ويعبر عن حزنه وألمه لفقدها وباكيا مكثرا لبكائها ولا يعرف الصبر لفراقها.

وقال العباسي بن الأحنف يرثي "ضياء" جارية الرشيد:

"ألا إن صَفو العيَش بعدك أكَدر وكل نعيم سوف يُقلى ويُهجر

لَعمري لنعم المستغاث به البكاء إذا فنى الصبر الذي كان يُذخر

سَأبكي ضياء مستقلا لها البكـا ويسعدني يحي وفضلٌ وجعفرٌ"[2]

. فهنا يذكر الشاعر رثائه للجارية وأثر فقدها، فيرى أن الحياة من بعدها كدر لا تصفوا وأن كل نعيم زال وانتهى بانتهائها.

وقد كان لرحيل الجواري أثر في نفوس شعراء الأندلس فهم في رثائهم لجواريهم كتبوا أشعارهم الحزينة الباكية.

ويقول ابن حمديس الصقلي:

"أيا رشاقة غصن البان ما هصرك و يا تألف نظم الشمل من نثـــرك

و يا شؤوني وشأني كله حـــــزن فضي يواقيت دمعي واحبسي دررك"[3]

[1] – عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ص 101.

[2]– المرجع نفسه، ص 104.

[3]– مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 138.

. بين ابن حمديس أن صبره نفذ بعد غياب تلك الجارية، ومصورا المرثية بغصن البان الذي يهصر، ثم ينادي الجارية الفقيدة وكأنها عقد منتظم الشمل فانتثر هذا العقد وأن حالته صارت حزينة بسبب غيابها.

ويقول أيضا ابن حمديس:

"لاَ صَبَرَ عَنك وكيف الصبر عنك وَقدْ طَواك عن عيني الموجُ الذي نَشرك

هَلاَّ وروضةُ ذاكَ الحسن ناضـــــــرة لاَ تلحظ العين فيها ذابلا زَهـرك

أمَاتك البحر ذو التيار من حســد لما درى الدرُّ منه حاسدا ثَغـرك" [1]

. بين أن صبره نفذ وأن الموج حال بينه وبين جاريته، فطواها عن عينه ولكنها مازالت في قلبه، مصورا المرثية قبل وفاتها بالروض الحسن النضير وأن البحر كان سبب في موتها وهذه حقيقة مؤلمة.

[1]- المرجع نفسه، ص 139.

تمهيد:

يعد رثاء الدول والمدن والديار الزائلة في الأدب العربي من موضوعات الرثاء القديمة الّتي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، حيث كان بكاها الشعراء و أعلنوا عن حزنهم و ألمهم لزوالها و نادبين إياها في شعر رثائي حزين فيه البكاء والحسرة عليها.

" وقد أكثر شعراء الأندلس في رثاء مدنهم وممالكهم ودولتهم حتى صار رثاء المدن والمماليك والديار فنا شعريا قائم بذاته في أدبهم "[1]

إن محنة سقوط المدن والدول الأندلسية جعلت الشعراء يرثونها رثاء حارًا.

كما رثى الشعراء المماليك والبلدان والقصور الّتي انهارت وسقط حكامها ومُلوكها ورثوا عواصمها الّتي كانت زاهرة بسكانها و أملها وعلمائها، فإنهم لم ينسوا رثاء تلك القصور الّتي طالما ضمتهم جدرانها، وتلك الديار الزواهر الّتي زالت و انهارت.[2]

فالشعراء ندبهم مدنهم وكانوا شديدي الارتباط بها لذلك صوروا في الكثير من قصائدهم التدمير والتخريب الّذي ألحقه الأعداء بالحواضر الإسلامية الأندلس.

رثاء المدن:

رثى الشعراء القصور و الديار والمدن التي أصابها الخراب وتفجعوا وبكوا و تألموا علميا، ولعل رثاء هذه القصور هو المقدمة الأولى لرثاء المدن.

رثاء مدينة بغداد:

ومن رثاء المدن ما قاله الشعراء في رثاء مدينة بغداد، بعد سقوطها في أيدي التتار أبرزهم تقي الدين إسماعيل بن أبي السير يقول:

"لَسَائِلِ الدَّمْعِ عَنْ بَغْدَادَ أَحيْـــارُ فَمَا وُقُوْفُكَ وَ الأَحْبَابُ قَدْ سَارُوا

[1] – جغام ليلى، رثاء المدن بين سقوط الأندلس وأحداث الثلاثاء الأسود، مجلة كلية الأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الرابع، جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)، جانفي 2009م، ص 02.

[2] – محمد عبد القادر حسن غنيم، رثاء الأنبياء في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، رسالة دكتوراه في الدب العربي، كلية الدراسات الشرقية، جامعة البنجاب، لاهور البكستان، (د ت)، ص 131.

يَا زَائِرِينَ إِلَى الزَاوْرَاءِ لاَ تَقِـــدُوا فَمَا بِذَاكَ الحَي وَالدَّارِ دِيَـــارُ
تَاَجُ الخِلَافَةِ وَالرُبْعْ الَّذِي شَـرُقَتْ بِهِ المِعَالِمُ قَدْ عَفَاهُ إِقْفَـــارُ
أَضْحَى لِعَطْفِ البِلَى فِي رَكْعِهِ أَثَرٌ وَلِلدُّمُوعِ عَلَى الآثَارِ أَثَـــارٌ"[1]

في هذه الأبيات بكى الشاعر بغداد وعينه تفيض بالدموع، فهو في حالة أسى، وحزن شديدا يملأ قلبه، ويصور لنا ما فعله التتار في بغداد و ما أصابها من خراب ودمار و فناء.

و يوضح شمس الدّين الكوفي على بغداد إذ يقول:

" عِنْدِي لِأَجَلِ فِرَاقِكُـــمْ أَلاَمُ فَإِلَامَ أَعْذُلُ مِنْكُمْ وَ أُلاَمُ
مَنْ كَانَ مِثْلِي لِلْحَبِيبِ مُفَارِقًـــا لاَ تَعْذِلُوهُ فَالكَلَامُ كَـلَامُ
نِعْمَ المسَاعِدِ دَمَرَنِي الجَـارِي عَلَى خَدِيَّ إِلاَّ أَنَّهُ نَمَّـــامُ
وَيُذِيبُ رُوحِي نَوْحُ كُلُّ حَمَامَـةٍ فَكَأَنَّمَا نَوْحُ الحَمَامِ حِمَامُ."[2]

فالشاعر في هذه الأبيات نائحا على بغداد، يئِسٌ حزين معتزل عن الناس بعد أن أخذت الفاجعة أحبته منه، يتحسر و يتأسى على المصيبة الّتي أصابت مدينته من دمار في مبانيها و أحرقت حضارتها، فالشاعر ينوح ويبكي على كل مستشهد من مشاهد هذه النكبة.

من أوّل النصوص في العصر الجاهلي قصيدة الشعر الّذي يعرف بذي جند الحميري حيث يرثي فيها دولة قومه الحميريين وفي اليمن والّتي دمرت على يد الأحباش يقول:

"هَوْنُكَ لَيْسَ يَرُدُّ الدَّمْعُ مَا مَاتَا لَا تَمْلِكِي أَسْفًا فِي ذِكْرِ مَنْ مَاتَا
أَبْعَدُ بَيْنُونَ لَا عَيْنٌ وَلَا أَثَـــرُ وَبَعْدَ سَلْحِينَ يَبْنِي النَّاسُ أَبْيَاتًا."[3]

فالشاعر يفيض بالأسف والحزن على الدمار الّذي أصاب دولته، هدم قصورها وتدمير حضارتها.

[1]- نبيل خالد أبو علي، فن الرثاء بين عصرين المملوكي و العثماني، محلية الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد السابع عشر، العدد الثاني، غزة، فلسطين، يونيو 2009م، ص 03.

[2]- المرجع نفسه، ص 05.

[3]- ياقوت الحموري، معجم البلدان، دار صادر ، بيروت، لبنان، د ط، 1376ه /1957م، ص 220.

وكذلك نجد الأعشى يرثي قصر ريمان الّذي دمر على يد الأحباش أما في العصر الأموي نجد الشاعر الأموي أبو العدي العبلي، حيث قال:

تَقُولُ أُمَامَةُ لَمَـــــــا رَأَتْ نُشُوزِي عَنِ المِضْجَعِ الأَنْفَسِ

وَقِلَّةُ نَومِي عَلَى مَضْجَعِـــي لَدَيَ مَجْعَةُ الأَعَيُنِ النَعْـــسِ

أَبِي مَا عَرَاكَ؟ فَقُلْتُ الهُمُومُ مَرَوْنَ أَبَاكِ فَلَا تَيْلَـــــسِ.[1]

في هذه الأبيات الشاعر مهموم ومضطرب، فعاطفته عاطفة حزن و أسى على فقدان عشيرته الّتي حل بها الخراب والدمار.

رثاء مدينة بربشتر:

كانت مدينة بربشتر من أمهات المدن لكن النورمانيين حاصروها لمدة أربعين عاما، وكان لسقوطها قبل استردادها أثر عميق في نفوس الشعراء ومنهم ابن العسال الّذي صور ما حدث بسكان المدينة فيقول:

"وَلَقَدْ رَمَانَا المشْرِكُوَن بِأَسْهُـــمِ لَمْ تُخْطَ لَكِنْ شَأْنُهَا الإِصْمَاءُ

هَتَكُوا بِحِيَلِهُمْ قُصُورَ حَرِيمِهَـــا لَمْ يَبْقَ لَا جَبَلٌ وَلَا بَطْحَـــاءُ

جَاسوُا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شُعَـــــرَاءُ

بَاتَتْ قُلُوبُ المسْلِمِينَ بِرُعْبِهُـمْ فَحُمَاتُنَا فِي حَرْبِهُمْ جُبَنَـــاءُ"[2]

صور ابن العسال في هذه الأبيات أثر الهزيمة القاسية والذل والعار لاسترجاع المسلمين ما ضيعوه، وكذلك الغدر والخيانة الّتي كان عليها المسيحيون وفي البيت الأخير حدد موطن الدَّاء وهو جبن المسلمين عن نصرة إخوانهم.

[1]- الراغب الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، مصر، (د. ط)، ج 11، (د.ت)، ص 244.

[2]- محمد لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه دولة في العربي القديم، كلية الآداب واللّغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004م-2005م، ص 193.

رثاء مدينة قرطبة:

تعرف مدينة قرطبة بالبهاء والعظمة والقصور، حتى حلاَّ بها الخراب والتدمير والنهب بسبب كثرة الفتن الّتي توالت عليها، فقام الشعراء يبكونها بكاءً شديدًا ومنهم ابن حزم و ابن شهيد فقال ابن حزم في مدينته:

" سَلَامٌ عَلَى دَارٍ رَحَلْنَا وَغُودِرَتْ خَلَاءً مِنَ الأَهْلِيَن مُوحِشَةً قَفْـرَا

تَرَاهَا كَأَنْ لَمْ تَغَنْ بِالأَمْسِ بَلْقَعَا وَلَا عُمِرَتْ مِنْ أَهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرَا"[1]

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى المصيبة الّتي حلت في مدينته، حيث أضحى بها خرابا بلقعا خالية من الأهل.

وكانت قرطبة عاصمة الخلافة وجوهرة مدن الأندلس تزخر بالمدارس والجامعات يقول المقري: " اعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى أنهم يقولون في الأحكام هذا ما جرى عملي لقرطبة "[2]

في رثائها يقول ابن شهيد الأندلسي:

"فَكَمِثْلِ قُرْطُبَةَ يَقِلُ بُكَاءَ مَنْ يُبْكِي بِعَيْنٍ دَمْعُهَا مُتَفَجِرُ

دَارَ أَقَالَ الله عَثْرَةَ أَهْلِهَـــا فَتَبَرْبَرُوا وَتَخَرَبُوا وَتَمَصَــرُوا.

ويضيف قائلا:

يَا طِيبَهُمْ بِقُصُورِهَا وَجُذُورِهَا وَبُذُورِها بِقُصُورِهَا تَتَحَدَرُ"[3]

فالشاعر في الأبيات يعود بذاكرته إلى الماضي القريب، حيث تميزت مدينته بالازدهار، وتزهوا بعمرانها وقصورها إلى الانهيار والتدمير والخراب.

---

[1]– محمد لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، ص 187.

[2]- المقري أحمد بن محمد التلمساني، النفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار الكتب العلمية ، بيروت،(د ط)، ج 1، 1968م، ص 556.

[3]– ابن خاقان الفتح بن محمد، مطمح الأنفس ومسح التأنس في صلح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة، عمان، الطبعة الأولى، 1963م، ص 109، 111.

ويقول كذلك في رثاء قرطبة:

"أَسَفِي عَلَى دَارٍ عَهِدَتْ رُبُوعَهَا وَظَبَاؤُهَا بِفَنَائِهَا تَتَبَخْتَـــرُ
أَيَامَ كَانَتْ كَفُّ كُلَّ سَلَامَـــةٍ تَسْمُو إِلَيْهَا بِالسَلَامِ وَ تَبَدُرَ
حُزْنِي عَلَى سَرَوَاتِهَا وَرُوَاتِـــهَا وَثِقَاتِهَا وَحُمَاتِهَا يَتَكَـــــرَرُ
نَفْسِي عَلَى آلَائِهَا وَصَفَائِـــهَا وَبَهَائِهَا وَسَنَائِهَا تَتَحَسَّـــرُ."[1]

وقد رثى ابن شهيد مدينته وبكاها لأنه شهد مأساتها بنفسه، ورد ما حدث بها إلى الزمان وذلك بعد أن صارت أطلالا خاوية لا يجد فيها من سأله عما حل بها و بأهلها.

ويقول ابن شهيد لما بكى قرطبة:

"مَا فِي الطُّلُولِ مِنَ الأَحِبّةِ مُخْبَـرٌ فَمَنْ الّذِي عَنْ حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ؟
لَا تَسْأَلَنَّ سِوَى الفُرَاقُ فَإِنَّـــهُ يُنْبِيَك عَنْهُمْ أَنْجَدُوا أَمْ أَغْوَرُوا
جَارَ الزَمَانُ عَلَيْهِمْ فَتَفَرَّقُـــوا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَبَادَ الأَكْثَـــرُ
جَرَتْ الخُطُوبُ عَلَى مَحِلِ دِيَارِهِمْ وَعَلَيْهِمْ فَتَغَيَرَتْ وَتَغَيـــرُوا
فَدَعْ الزَمَانَ يَصُوغُ فِي عَرَصَاتِهِـــمْ نُورًا تَكَادُ لَهُ القُلُوبُ تُنَـــوِّرُ."[2]

بعد أن صارت قرطبة أطلالا وبكاها وشهد مأساتها، وعبر عن هول الفاجعة بكلمات حزينة، فهو ينادي الطلول ولكنها لا تجيبه، فسأل الزمان و يتألم على هذا البلد.

ويقول أيضا في رثائها:

"يَا جَنَةً عَصِفَتْ بِهَا وَ بِأَهْلِـــهَا رِيحُ النَوَى فَتَدَمَّرَتْ وَتَدَمَّـــرُوا
آسِي عَلَيْكِ مِنَ المِمَاتِ وَحُقَ لِي إِذَا لَمْ نَزَلْ بِكِ فِي حَيَاتِكِ نَفْخَرُ
يَا مَنْزِلًا نَزَلَتْ بِهِ وَ بِأَهْلِـــــهِ طَيْرُ النَوَى فَتَغَيَرُّوا وَتَنَكَّـــرُوا

[1]- محمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، ص 190.
[2]- المرجع نفسه، ص 188.

جَادَ الفُرَاتُ بِسَاحَتَيْكِ وَدَجَلَةُ وَالنِيلُ جَادَ بِهَا وَجَادَ الكَوْثَرُ."[1]

فالشاعر يشير إلى جنة قرطبة الّتي حولها الغادرون إلى خراب، فتدمرت وتدمر أهلها، ويأس عليها وعلى أهلها و أن يجود الفرات ودجلة والنيل بساحتيها.

رثاء مدينة بلنسية:

مدينة بلنسية من المدن الّتي أصابها الدمار والخراب على أيدي المسلمين، فتلك الفتنة الكبرى والكارثة العظمى جعلت الشعراء يبكون على بلنسية ويرثونها رثاء حزينا مبكيا.

رفق هذا الحادث يقول ابن خفاجة:

"عَاثَتْ بِسَاحَتِكَ المِدَى يَا دَارُ وَمَحَا مَحَاسِنُكِ البِلَى وَالنَّـــارُ

فَإِذَا تَرَدَدَ فِي جَنَابِكِ نَاظِـــرُ طَالَ اِعْتِبَارُ فِيكِ وَاسْتِعْبَـــارُ

أَرْضَ تَقَاذَفَتْ الخُطُوبُ بِأَهْلِهَا وَ تَمَخَضَتْ بِخَرَابِهَا الأَقْـــدَارُ

كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ."[2]

في هذه الأبيات يقف ابن خفاجة وقفة حزينة بساحة مدينته الّتي ذهبت محاسنها بفعل ما أصابها من التدمير والإحراق.

رثاء اشبيلية:

كانت اشبيلية محاصرة من طرف الصلبيين لما حل بها من الخراب والظا لم والتقاتل والتنازع واشتد الحصار وقربت النهاية فيها. ومن ذلك قول أبي موسى هارون بن هارون:

"يَا مَنْ أَقْصِدُكَ المَقْدُورَ حِينَ رَصَّ لَمْ يَرْعَ فِيكَ الرَدَى إِلاَّ وَ لاَ ذِمَّـــا

جَرَتْ عَلَيْكَ يَدٌ لِلدَهْرِ ظَالِمَـــةٌ لَا يَعْدِلُ الدَّهْرُ فِي شَيْءٍ إِذَا حَكَمَا

[1]- محمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، ص 189.

[2]- شاهر عوض الكفاوين، الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتّى نهاية سقوط الأندلس، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، كلية اللّغة العربيّة، جامعة أم القوى، مكة المكرمة، 1404هـ 1984م، ص 243.

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الحَادِثَاتُ إِذَا هَمَتْ بِكَ السُوءُ لَا تَلْقَى لَكَ السَلَمَا."[1]

في هذه الأبيات يقف الشاعر متأملا متعجبا من حالة مدينته، حيث أصابتها الحادثات الّتي لا ترعى إلا ولا ذَمم، ويرجع سبب هذه المحنة إلى ظروف الدهر.

رثاء طليطلة:

من أكبر دول الطوائف انقع على مشارف الأندلس، وكان لسقوط طليطلة أثر كبير في نفوس ملوك الطوائف وفي نفوس الشعراء.

يقول ابن العسال في رثاء طليطلة:

"يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُوا مَطِيَكُـمْ فَمَا المقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الغَلَـــطِ

الثَوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَ أَرَى ثَوْبُ الجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الوَسَطِ

وَنَحْنُ بَيْنَ عَدُوٍ لَا يُفَارِقُنَـــا كَيْفَ الحَيَاةُ مَعَ الحَيَّاتِ فِي سَفَطِ"[2]

وهنا بكي ابن العسال طليطلة المنكوبة، بعد أن حولوا مسجدها إلى كنيسة، وكيف يعيش الحياة وهم بين عدو لا يفارقهم لأنه قاسى مرارتها و أحس بهول الفاجعة.

ويقول أيضا في رثائها:

"فَيَا أَسَفَاهُ يَا أَسَفَاهُ حُزْنًـــا يُكَرَّرُ مَا تَكَرَرَتْ الدُهُـــورُ

وَيَنْشُرُ كُلُّ حُسْنٍ لَيْسَ يُطْوَى إِلَى يَومٍ يَكُونُ بِهِ النُشُـــورِ

أُدِيلَتْ قَاصِرَاتُ الطَرْفُ كَانَتْ مَصُونَاتٍ مَسَاكِنُهَا القُصُورِ

وَ أَدْرَكُهَا فُتُورٍ فِي اِنْتِظَـــارٍ لِسِرْبٍ فِي لَوَاحِظِهِ فُتُـــورِ

وَكَانَ بِنَا وَ بِالقِينَاتِ أَوْلَـــى لَوْ اِنْضَمَتْ عَلَى الكُلِّ القُبُورِ

لَقَدْ سَخِنَتْ بِحَالَتِهِنَ عَيْـــنٌ وَكَيْفَ يُصْبِحُ مَغْلُوبٌ قَرِيـــرِ

لَئِنْ غِبْنَا عَنِ الإِخْوَانِ إِنَّـــا بِأَحْزَانِ وَ أَشْجَانِ حُضُـــورِ."[3]

---

[1]- شاهر عوض الكفاوين، الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتّى نهاية سقوط الأندلس، ص 252.

[2]- محمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، ص 195.

[3]- المرجع نفسه، ص 197.

يتأسف الشاعر على تلك النهاية المحزنة، حزن يكرر ما تكررت التهور، وصور الدمار التي حل بها وبمساكنها ويرد الأحداث التي حلت بها إلى تقلب الدهر.

رثاء المدن المغربية القديمة:

1. رثاء تيهرت:

أخذت تيهرت تسير نحو الزوال و الاندثار بعدها أخلاها سكانها وأقفرت عنها الحياة ثم لم تلبث أن عفت وزالت معالمها من خارطة الوجود، وتنافس الشعراء الملهمون في تقديم قرابين الوفاء و أكاليل الرثاء.

يقول الشاعر بكر بن حماد في رثاء بلدته تيهرت:

"قِفْ بِالقُبُورِ فَنَادَ الهَامِدِينَ بِهَا مِنْ أَعْظَمِ بَلَيْتُ فِيهَا وَ أَجْسَادِ

قَوْمٌ تَقَطَعَتْ الأَسْبَابُ بَيْنَهُمْ مِنَ الوِصَالِ وَ صَارُوا تَحْتَ أَطْوَادِ

أَيْنَ البَقَاءُ وَهَذَا المَوْتُ يَطْلُبُنَا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا بَكْرُ بْن حَمَادْ. "[1]

تشير هذه الأبيات إلى أنَّ الواقف بالقبور لو نادى بأعلى صوته، لن يرد عليه أحد لأن أسباب الوصال قد تقطعت بين الأحياء وبين الهامدين تحت الأرض.

2. رثاء القيروان:

دخل أعراب بني هلال مدينة القيروان فنهبوها، ولم تبقى دار إلا فتشت، ثم هدم ما كان فيها قائما فيها حتى قدت تلك الربوع الخالية لا أنيس بها.

يقول ابن شرف القيرواني في رثاء مدينة إثرا النكبة الكبرى التي ألمت بها:

" أَلَا مَنْزِلٌ فِيهِ أَنِيسٌ مُخَالِطٌ أَلَا مَنْـــــزِلٌ فِيـــهِ أَنـــــَسُ

تَرَى سَيِّئَاتُ القَيْرَوَانِ تَعَاظَمَتْ فَجُلَتْ عَنِ الغُفْرَانِ، وَاللهُ غَافِـــرُ

أَيْسَبَتْ بِالكَبَائِرِ وَحْدَهَـــــا أَلَمْ تَكُ قَدَمُهَا فِي البِلاَدِ الكَبَائِرِ؟!"[2]

[1]- عبد القادر شريط، فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري، درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 1427/1426هـ ، 2006/2005م، ص 91.

[2]- المرجع نفسه، ص 124.

فقد صور الشاعر ألامه وحزنه العميق على تلك المنازل المفجوعة، فهو يعاني من ألم الوحد وعذاب الغربة، فلا أنيس و لا رفيق.

3. رثاء قرطاجنة:

كانت مدينة قرطاجنة تمتاز على خيرها من المدن بحس موقعها التجاري وصناعتها الحربية، إلا أنها تهدمت ولم يبقى منها سوى أكداس الخراب.

يقول ابن خلف في وصفه لأطلال قرطاجنة مخاطبا آثارها:

" تَصْفَقُ فِيكِ الرِيحُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفَرَقَ مِنْكِ الدَّهْرُ مَا قَدْ تَجَمَعَا

فَمَزَقَ ذَاكَ الشَمْلُ بَعْدَ اِجْتِمَاعُـهُ فَلِلَهِ دَهْرٌ، مَا أَغَرَ وَ أَفْجَعَـــا"[1]

تألم الشاعر معبرا عن المشهد الّذي رآه، و اللحظة الّتي عاشها فالريح تصفق فرحة بمظاهر الخراب، إذ فرق ما كان مجتمعا ومزق شمل الأحبة فما غره و ما أفجعه.

4. تلمسان:

و إذا اتجهنا إلى تلمسان، التقينا بشاعرها "ابن خميس" وله أبيات يتشوق فيها لرؤية موطنه، وهو لا يغفل عن تلمسان فهي مسقط رأسه ومربع صباه، يقول:

" تِلِمْسَانُ جَادَتْهَا السَحَابُ الدَوَالِحُ وَ أَرْسَتْ بَوَادِيهَا الرِيَاحُ اللَوَاقِحِ

فَفِي كُلِّ شَفْرٍ مِنْ جُفُونِي مَاتِـــــحٍ وَ فِي كُلِّ شَطْرٍ مِنْ فُؤَادِي قَادِحِ

فَمَا المَاءُ إِلاَّ مَا تَسْمَحُ مَادَمِعِـــــي وَلَا النَّارُ إِلاَّ مَا تُجَنُ الجَوَانِـــــحِ

نَظَرْتُ فَلَا ضَوْءُ مِنَ الصُبْحِ ظَاهِـرُ لِعَيْنِي وَلَا نَجْمُ إِلَى الغَرْبِ جَانِــحِ

كَتَمْتُ هَوَاهَا ثُمَّ بَرَحَ بِي الأَسَـــى وَكَيْفَ أَطِيقُ الكَتْمَ وَالدَمْعُ فَاضِحِ."[2]

[1]- عبد القادر شريط، فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري، ص 149.

[2]- المرجع نفسه، ص 171.

يستهل الشاعر أبياته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائما و تظل بواديها الرياح الملحقة، و أنه متشوقًا إليها بنيران الوجد والحب، و تغلب على هذه الأبيات لوعة الفراق وقساوة الغربة.

رثاء الدول:

يعد رثاء الدول الزائلة في الأدب العربي من موضوعات الرثاء القديمة التي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، كرثاء الشاعر الجاهلي الأسود بن يعقر لدولة المناذرة.

حيث هذا اللّون من الرثاء كان قليلا في الأدب العربي قبل العصر العباسي الأوّل، وكانت الدول الأموية من أبرز موضوعات الرثاء الدول الزائلة في العصر العباسي الأوّل حيث بكاها بعض الشعراء في العصر العباسي و أعلنوا عن حزنهم و ألمهم لزوالها نادبين إياها مؤبنين خلفاءها في شعر رثاء حزين.

وما قاله الشاعر المخضرم أبو العباسي الأعمى السائب بن فروخ في رثاء الدولة الأموية الزائلة:

"لَيْتَ شِعْرِي أَفَاحَ رَائِحَةَ المِـ سْكِ وَمَا إِنْ خَالَ بِالخَيْفِ أَنْسِي

حِينَ غَابَتْ بَنُو أُمَيَةُ عَنْـــهُ وَالبَهَالِيلُ مِنْ بَنـــِي شَمْـــــــسِ

خُطَبَاءُ عَلَى المَنَابِرِ فُـــــرْ سَانُ عَلَيْهَا وَقَالَهُ غَيْـــــرَ خَـرَسِ

لَا يُعَابُونَ صَامِتِينَ وَ إِنْ قَا لُوا أَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بَلْبَـــــــسِ

يَحْلُومٍ إِذَا الحَلُومُ أُسْتُخِفَـتْ وَ وُجُوهٍ مِثْلَ الدَنَانِيرِ مَلْـــــسِ."[1]

فالشاعر في هذه الأبيات يرثى الدولة الأموية الزائلة وبكى بكاء دامعا على خلفائها و يأبنهم تأبينا رائعا معدّدا بعض صفاتهم وفضائلهم فهم البهاليل من بني شمس، وهم خطباء بلغاء وفرسان نصحاء ليس فيهم عيب.

وما قاله أيضا في رثاء الدولة الأموية قصيدته الرائعة الّتي قال فيها:

"آمَتْ نِسَاءُ بَنِي أُمَيَة مِنْهُمْ وَبَنَاتُهُمْ بِمَضِيعَةِ أَيْتَامْ

[1]– عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأوّل، ص 221.

نَامَتْ جُدُودُهُمْ وَ أُسْقِطَ نَجْمُهُمْ وَالنَجْمُ يَسْقُطُ والجُدُودُ تَنَامُ

خَلَتْ المَنَابِرُ وَ الأُسْرَةُ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِمْ حَتَّى المَمَاتُ سَلاَمُ "[1]

فالشاعر في الأبيات يبكي الدولة الأموية وأبياته كلها دموع وحسرات وزفرات لسقوطها فهي تفيض باللوعة و الأنين والعاطفة الحزينة السابقة.

ومن رثاء الدولة الزائلة في الشعر العباسي قصيدة البحتري الّتي رثى فيها دولة الفرس ومن قوله:

"حَضَرَتُ رَحْلَى الهُمُومِ فَوَجَهْ تُ إِلَى أَبْيَضِ المَدَائِنِ عَنْسَى

أَتَسَلَى عَنِ الحُظُوظِ وَ آسَى لِمَحَلِ مِنْ آل سَاسَانْ دَرْسَ

أُذْكُرُ تَنَبُهِمْ الخُطُوبُ التَوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَرَ الخُطُوبَ وَتَنَسَى.

إلى أن قال:

وَمَسَاعٍ لَوْلَا المُحَابَاةُ مِنِي لَمْ تَطُقْهَا مُسَعَاةُ عَنْسٍ وَعَبْسٍ

نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَ عَنِ الجَدِ دَةِ حَتَّى رَجَعْنَ أَنْضَاءَ لُبْسٍ

إلى أن قال:

فَكَأَنِي أَرَى المرَاتِبَ وَالقَوْ مِ إِذَا مَا بَلَغَتْ أَخِرَ حِسٍ

وَكَأَنَ الوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى مِنْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزِحَامِ وَخَنْسٍ."[2]

فالبحتري في هذه المقتطفات يرثى دولة الفرس الزائلة، وبكى عليها بكاء حارًا مشيدًا بمجدهم وحضارتهم الّتي أصبحت أطلالاً، عمق معلنا في أبياته عن حزنه و ألمه و أسفه لما حل بهذه الدولة العظيمة الّتي تشاركه الهموم والمصائب.

وفي الأخير نستنتج أنّ الدولة الأموية والدولة الفارسية الزائلة كانتا موضوعا مهما لشعر رثاء الدول الزائلة في العصر العباسي الأوّل فالشعر العباسي أجاد في فن رثاء الدول إجادة عظيمة.

[1]- عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأوّل، ص 221.

[2]- المرجع نفسه، ص 222.

رثاء دولة بني عباد:

تعتبر من أهم الممالك التي سقطت، ونالت تعاطفا كبيرا من الشعراء، وقد زالت على يد يوسف بن تاشفين سنة 483.

يقول ابن اللبانة باكيا الدولة العبادية:

" تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ عادِي عَلَى البَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّـــادْ
عَلَى الجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَـا وَكَانَتْ الأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادْ
وَكَعْبَةٌ كَانَتْ الآمَالُ تَخْدِمُهَـــــا فَاليَوْمَ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَلَا بَادْ."[1]

ثم يصوّر ابن اللبانة كيف نقل بنو عبّاد، وكيف كان وداعهم، راسمًا صورة حزينة لذلك الملك "المعتمد" الّذي ودّعه قومه، بالدموع والنواح، فكأن الناس يودعون قطعًا من أكبادهم، يقول:

"حَانَ الوَدَاعَ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَـــةٍ وَصَارِخٍ مِنْ مُغْدَّاةٍ وَمِنْ فَـادِي
سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوحُ يَصْحَبُهَـــا كَأَنَّهَا إِبِلٌ يُحْدُو بِهَا حَـــادِي
كَمْ سَالَ فِي المَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ تِلْكَ القَطَائِعُ مِنْ قِطْعَانِ أَكْبَادِ."[2]

عاطفة الحزن تسبغ هاتين المقطوعتين، وقد بكى ابن اللبانة على أصول الدولة العبادية بعد أن شبهها بالجبال التي هدّت قواعدها، وشبههم أيضا بالكعبة الّتي أقلت من طوافها، مصورًا ألما حزينا على المعتمد الّذي ودعمه قومه، والتفجع على ما أصاب بني عباد فقد كانو سادة كرامّا، والمصيبة قد عمت بفقده.

رثاء دولة بني الأفطس:

حظيت دولة بني الأفطس بقصائد رثاء كثيرة، فقد رثاها أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيدة من أمهات القصائد على ما شاهده من مآس حركت مشاعره على هول الفاجعة بكلمات حزينة.

[1]- مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 155.
[2]- المرجع نفسه، ص 156.

يقول ابن عبدون في رثاء بني الأفطس:

" الدَّهْرُ يُفجِعُ بُعْدَ العَيْنِ بِالأَثَـــرِ فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأَشْبَاحِ وَالصُـــوَّرِ
أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ لَا أَنْهَالُكَ وَاحَـــدَةً عَنْ نَوْمَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيْثِ وَالظُفْـــرِ
فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَ إِنْ أَبْدَى مُسَالِمَةً فَالبِيضُ وَ السُمْرُ مِثْلَ البِيضِ وَ السُمْرِ
فَلَا يَغُرَنَكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمَتُـــهَا فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنَيْهَا سِوَى السَّهْـــرِ." [1]

فالشاعر في مرثيته يسلم كل ما يجري على هذه الدولة للقدر، ورسم صور الدّمار الّذي حل بها، فهو يحذر من الركون إلى هذه الدنيا و الراكن إليها كالنائم بين أنياب الليث و مخالبه، وأنَّ الدّهر يحارب الإنسان في صورة مسالم و أنَّ البيض من لياليه مثل السيوف، والسمر مثل الرماح.

وتستمر القصيدة وفق هذه النبرة الحزينة، وقد كان الشاعر بارعا في التقاط بعض الصور الّتي تبين غدر الدنيا بأهلها وخلانها، ومن ذلك قوله:

"هَوَتْ بِدَارَا وَفَلَتْ غَرْبَ قَاتِلِـــــهِ وَكَانَ عَضَبًا عَلَى الأَمْلَاكِ ذَا أَثَرِ
وَ اِسْتَرْجَعَتْ مِنْ بَنِي سَاسَانْ مَا وَهَبَتْ وَلَمْ تَدَعْ لِبَنِي يُونَانْ مِنْ أَثَـــــرِ
وَمَزَقَتْ سَبَـــــأً فِي كُلَّ قَاصِيّـــــةٍ فَمَا الْتَقَى رَائِحٌ مِنْهُمْ بِمُبْتَكِـــرِ."[2]

وهكذا يمضي الشاعر في بكائه وتفجعه على ما أصاب بين الأفطس من الدّمار، وعليهم أن يتعزوا بمن سلب ملكهم وتبدلت أحوالهم مثل "دارًا" آخر ملوك الفرس الّذي قتله الاسكندر، وبني ساسان زهم الفرس الأواخر الّذين استردت منهم الليالي ما آتتهم من ملك وسلطة.

رثاء دولة المماليك:

أوّل ما يصادفنا في مطلع العصر العثماني رثاء دولة المماليك مصر الّذي بكى العديد من الشعراء على هذه الدولة ما ذهب من مناقبها وبطولاتها.

ومن ذلك قصيدة طويلة لابن إياس يقول في صدرها:

[1]- مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، ص 157

[2]- المرجع نفسه، ص 158.

"نُوحُوا عَلَى مِصْرَ لِأَمْرٍ جَـرَى مِنْ حَادِثٍ عَمَّتْ مُصِيبَتُهُ الوَرَى
زَالَتْ عَسَاكِرُهَا مِنَ الأَتْرَاكِ فِي غَمْضِ العُيُونِ كَأَنَّهَا سَنَةُ الكَـرَى
وَأَتَى إِلَيْهَا عَسْكَرٌ سِيمَاهُـــمْ حَلْقُ الذُقُونِ وَلَيْسَ طَرْطُورٍ يُرَى
لَا يُعْرَفُ الأُسْتَاذُ مِنْ غِلْمَانِهِ وَ أَمِيرُهُمْ بَيْنَ الأَنَامِ تَحَقُّـــــرَا
جَلَّ الإِلَهُ مُصَدِّقًا عَمَّا حَكَى فِي سُورَةِ الرُّومِ العَظِيمَةِ أَخْبَـــرَا."[1]

يبدأ ابن إياس مرثيته بحث المسلمين على بكاء مصر حاضرة دولة المماليك، للمصيبة الّتي ألمت بها، وبعدد المصائب الّتي حلت بها في زوال جيش المماليك في لمح البصر، وحلول العساكر العثمانيين مكانهم، ويعزّي نفسه بأن هذه المصيبة مقدرة و أنّ الله تعالى أخبر عنها في سورة الروم.

ويقول أيضا:

"زَالَتْ مَحَاسِنُ مَصْرَ مِنْ أَشْيَاءَ قَـــدْ كَانَتْ بِهَا تَزْهُو عَلَى كُلِّ الـــوَرَى
لَهْفِي عَلَى الأُمَرَاءِ كَيْفَ تَشَتَّتُـــوا وَخَلَتْ مَنْزِلُهُمْ وَعَدَتْ مُقْفَـــرَا
لَهْفِي عَلَى أَتْرَاكِ مِصْرَ إِذَا غَـــدَتْ مَكْسُورَةً وَقُلُوبُهَا لَنْ تُجْبَـــرَا
لَهْفِي عَلَى الفُرْسَانِ كَيْفَ تَقَطَّعَـــتْ أَعْنَاقُهَا بِيَدِ العَدُوِّ إِذْ افْتَـــرَى
صَارَتْ عَلَى الطُرُقَاتِ مِنْ أَجْسَادِهِمْ رِمَمٌ حَكَتْ عِيدَ الضَحَايَا الأَكْبَرَا."[2]

فالعاطفة تزاوجت بين الحزن على المماليك وزوال دولتهم وتصوير الفاجعة الّتي ألمت بها، مما نراه من عبارات اللهفة و الأسى.

[1]- نبيل خالد أبو علي، فن الرثاء بين عصرين المملوكي والعثماني، ص 10.
[2]- المرجع نفسه، ص 10.

رثاء القصور

رثاء القصور هو لون جديد من ألوان الرثاء ظهر في العصر العباسي الأوّل و ابتكره شعراؤه، حيث راحوا يبكون القصور ويرثونها ويندبونها ندبًا حارا واصفين عظم المصيبة وهول الفجيعة الّتي أحلت بالقصور وصفا ممزوجا بالحزن والأسى ولعل أبرع شاعر من شعراء العصر العباسي الأوّل في رثاء القصور " البحتري" حيث برع براعة في رثاء القصور ومن هذا القبيل رثاؤه لقصر الخليفة المتوكل "الجعفري" فيقول:

"مَحَلَ عَلَى القَاطُولْ أَخْلَقَ دَائِـــــرَهُ وَعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ جَيْشًا تُغَاوِرُهُ

كَأَنَ الصِبَا تَوَفَى نُذُورًا إِذَا أَتْبَـــرَتْ تُرَاوِحُهُ أَذْيَالُهَـــــــا وَتَبَاكُـــرُهُ

وَرُبَّ زَمَانٍ نَاعِمٍ- ثُمَّ- عَهْـــــــدُهُ تَرِقُ حَوَاشِيهِ وَ يُونَـــــقُ نَاظِـــرَهُ

تَغَيَّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِي وَأَنَّـــــــــهُ وُقُوضٌ بَادَى الجَعْفَـــــرِي وَحَاضِرَهُ

تَحَمَلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَـــــــــاءَةً فَعَادَتْ سَوَاءً دَوْرُهُ وَمَقَابِـــــــــرُهُ

إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجْدَ لَنَا الأَسَـــــى وَقَدْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ يُبْهِجُ زَائِـــــرَهُ

وَلَمْ أَنْسَ وَحْشَ القَصْرِ إِذْ رَبُعَ سَرْبُهُ وَ إِذْ ذَعُرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَـــــــاذِرَهُ

وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَحِيلِ فَهَتَكَـــتْ عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُه وَسَتَائِـــــــرُهُ."[1]

فالبحتري في هذه الأبيات يرثي قصر الجعفري ويبكي على ما أصابه من خراب ودمار، ويصور المصيبة الّتي لحقت به ويصفها وصفا ممزوجا بالحزن و الأسى، ونلاحظ أنه يندب أيام المجد والبهاء التي عاش فيها القصر من تغير ما كان عليه من جمال وحسن إلى تهدم ظاهره وداخله، فأصبح خرابا كأنه القبر في وحشته، حيث كلما يزوره يجدد أحزانه ويلهب مشاعره.

[1]- عبد الهادي علي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأوّل، ص 250، 251.

فالبحتري يرثي القصر رثاء حارا ويندبه ندبا مفجعا ويبكي عليه بكاء دامعا بكل الصدق والوفاء.

و من أروع رثاء القصور كذلك رثاء البحتري للإيوان الفارسي قصر كسرى الأبيض ومن قوله:

"حَضَرْتُ رَحْلَى الهُمُومِ فَوَجَهْ تُ إِلَى أَبْيَضِ المِدَائِنِ عَنْسٍ

إلى أن قال:

فَكَأَنَ الجِرْمَازْ مِنْ عَـــدَمِ الإِنْ سِ وَ إِخْلَالُهُ بُنْيَةَ رَمْـــتَـــسٍ

لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَـــــالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُـرْسٍ

وَهُوَ يُنْبِيكَ عَنِ عَجَائِبِ قَوْمٍ لَا يَشَابُ البَيَانُ فِيهُمْ بَلْبَسٍ.[1]

يتبين أنَّ البحتري يبكي قصر كسرى ويندبه ندبا حارًا مصورًا عظم المصيبة وهول الفجيعة الّتي حلت به، حيث أنَّ الإيوان قد تحول إلى قبر ضخم وتحولت فيه الأعراس مأتما بعد أن كان يكتظ بالترف والنعيم.

[1]– عبد الهادي علي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأوّل، ص 253.

خاتمة

خاتمة:

قال الله تعالى: "وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ بِاللهِ"

أتممنا بحد الله وتوفيقه هذا البحث، راجين من الله العلي القدير أن نكون قد وفقنا فيه ومن خلال طوافنا في عالم الحداد الشعري في الشعر العربي القديم توصلنا إلى النتائج التالية:

- استنتجنا بأن الرثاء هو التفجع على الميت وبكاء فصائله، و أن أقسامه ثلاث هي: الندب والتأبين والعزاء.
- من الشعراء الذين اشتهروا بالرثاء في الأدب العربي عبر مختلف العصور، المهلل والخنساء وحسان بن ثابت وجرير و ابن الرومي و أبو تمام وحافظ ابراهيم ونزار قباني.
- يعبر الحداد في معناه اللّغوي و الاصطلاحي عن منع وتجنب المرأة نفسها من التزيين تعبيرا عن الحزن.
- الحزن ألم نفساني يحيل لنفس لوقوع مكروه أو فراق محبوب ويرادفه الغم والهم والكآبة.
- اعتبار الرثاء أهم غرض شعري حافل بالحزن.
- حداد الدم محركه الأساسي الفقد.
- الرثاء غرض شعري مهم له مفاهيمه وبنيته وتجلياته ومن بينها حداد الفقد الأبدي وحداد الظعن.
- تتنوع المراثي بداية برثاء الأهل والأقارب ورثاء العلماء و الوزراء والملوك.
- يختص حداد الفقد الأبدي، برثاء الأهل والأقارب نجد فيه رثاء الابن و الأخ والزوجة والأم، ورثاء العلماء والوزراء والملوك.
- يتميز رثاء أخيها صخر، بحيث رابطة الأخوة كانت لها أوصر قوية منذ الجاهلية.
- توظيف الشعراء ألفاظا تعبر عن فجيعتهم وحزنهم.
- يتناول حداد الظعن رثاء الصديق والحبيب والحبيبة.
- معاناة الشاعر من ألم الشوق والحزن والحرقة.

– لغياب التواصل مع حبيبته هو ما دفعه إلى التعبير عن هذه المشاعر في الكثير من القصائد.

– إضافة الشعراء إلى وتر هذا الرثاء الحزين إيقاعا جديدا تمثل في رثاء الدول والبلدان والمدن والقصور.

– انتاج الشعراء شعرا فياضا بالأسف والحزن عن مشاعر الشعوب و الأوطان الّتي عاشت حينا من الدهر و ازدهرت ثم طرقتها بعد الخراب.

– تعتبر مأساة الأندلس من أشد مآسي على خريطة التاريخ.

– بروز الأندلسيين إلى حد كبير في مجال رثاء المدن، فضلا عن أن هذا الرثاء أكثر روعة وأشجى حزنا وعويلا وحسرة وأصدق عاطفة و أحر المشاعر.

– تعتبر الدولة الأموية من أبرز موضوعات الرثاء للدولة الزائلة في العصر العباسي الأول بكاها العديد من الشعراء في شعر رثائي حزين متآسفا عما حل بالدولة من فساد و خراب.

– انفصال رثاء المدن انفصالا مباشرا ووثيقا برثاء القصور حيث صور الشعراء في الكثير من قصائدهم ما حدث للقصور من خراب ودمار واصفين المأساة وصفا حزينا في براعة وروعة.

– يعد رثاء البحتري للقصور من اروع شعر رثائي صادق العاطفة.

– رثاء القصور من موضوعات الرثاء الجديدة التي برزت في العصر العباسي الأوّل فإن لذلك أصولا قديمة في الأدب العربي.

– يعد رثاء الأطلال وبكاؤها شهيدا لرثاء القصور وهو الّذي أوحى بهذا الموضوع الجديد.

هذا و لا ندعي أننا قلنا كلمة الفصل بل الموضوع مازال محل بحث وتنقيب ودراسة فبالإمكان أن نجد فيه ملامح أخرى لم تقف عليها، لأن دراستنا اشتملت على نموذج واحد فلعل الله يتيح لنا قرصة لاستكمال البحث لاحقا وبه توفيقنا سبحانه وتعالى.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم:**
- **الكتب:**

1. ابن القيم، الداء والدواء، حققه: محمد أجمل الاصلاحي خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عام الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1429هـ.

2. ابن خاقان الفتح محمد التلمساني، النفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)،ج 1، 1968م.

3. أحمد الفاضل، تاريخ وعصور الأدب العربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م.

4. الراغب الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، مصر، (د ط)، ج 11، (دت).

5. الزوزي شرح المعلقات السبع، دار 'حياء التراث العرب، ط1، 1423هـ/2002م.

6. سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطّباعة، عمان، ط 1، 1433هـ/2012م.

7. شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، مصر، ط 4، (د.ت)

8. عبد الرشيد عبد العزيز سالم، شعر الرثاء العرب، وكالة المطبوعات الكويت ، الطبعة الأولى، 1982م.

9. عبد الله الخاطر، الحزن و الإكتئاب على ضوء الكتاب والسنة، جميع حقوق الطبع والنّشر والترجمة محفوظة للمنتدى الإسلام، (د ط)، (د ت).

10. عبد الناصر محمد السعيد، رثاء الأم في الأدب العربي الحديث (د ش)، جامعة الأزهر، طبعة 2000 ، (د.ت)

11. عبد الهادي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأوّل دار الكتب المصرية، جامعة الأزهر المنصورة، ط1، 1411هـ/1990م.

12. عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 1412هـ/ 1992م.

13. فواز الشعار، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

14. المقري أحمد بن محمد التلمساني، النفح الطيب، تح: إحسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط)، ج 1، 1968م.

– المعاجم:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطّباعة والنّشر،بيروت، ط 1، المجلد الرابع ، 1863م.

2. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، (د ط)، 1376هـ/1957م.

– الديوان:

1. ديوان أبي تمام، تح: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، المجلد الرابع، 1119م.

2. عباس ابراهيم، شرح ديوان الخنساء، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م.

- **رسائل ماجستير ودكتوراه:**

1. حسينة جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، رسالة ماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة دمشق، 1402هـ/ 1982م.

2. شاهر عوض الكفاوين، الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في الأدب العربي كلية اللّغة العربيّة، جامعة أم القرى، المكرمة، 1404هـ/1984م.

3. فدوى عبد الرحيم قاسم، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، درجة الماجستير في اللّغة العربيّة و آدابها، جامعة النجاح الوطنية كلية الدراسات العليا، 1423هـ/2002م.

4. محمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي القديم، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005/2004م.

5. محمد عبد القادر حسن غنيم، رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، رسالة دكتوراه في الأدب العربي، كلية الدراسات الشرقية جامعة البنجاب، لاهور، البكستان،(د ت).

6. مهدي عواد الشموط، الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير في اللّغة العربيّة وآدابه، الجامعة الأردنية، كانون الثاني، 2010م.

7. عبد القادر شريط، فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري، درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 1426-1427هـ/ 2005-2006م.

- **المجلات:**

1. جغام ليلي، رثاء المدن بين سقوط وأحداث الثلاثاء الأسود مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد الرابع، جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)، جانفي2009م.

2. فوزي ابراهيم الحاج، ظاهرة الحزن في ديوان عمّ مساء أيها الرجل الغريب اشاعر طالب هماش، مجلة جامعة القدس المفتوحة للدراسات العدد 34، 2014م.

3. فيجان شالي المطيري، لإمداد بأحكام الحداد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط 16، العدد الثاني و الستون، ربيع الآخر، جمادة الآخرة، 1404هـ /1984م.

4. محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، أبو عبد الله الواقدي، الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، الطبعة الأولى، مطابع دار الصفوة، مصر، ج 29.

5. نبيل خالد أبو علي، فن الرثاء بين عصرين المملوكي والعثماني، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد السابع عشر، العدد الثاني، غزة، فلسطين، يونيو2009م.

الفهرس

الفهـــــــــــرس

شكر وعرفان.....

إهداء.....

مقدمة:.....أ

مدخل:.....02

الفصل الأول: حداد الدم

1- حداد الفقد الأبدي:.....12

رثاء الأهل والأقارب:.....12

رثاء الأخوة:.....13

رثاء الأبناء:.....14

رثاء الآباء: 17

رثاء الأمهات:.....19

رثاء الأزواج والزوجات: 20

رثاء الفقهاء والقادة: 23

رثاء الملوك و الأمراء: 25

رثاء العلماء: 26

2- حداد الظعن: 28

رثاء الأصدقاء:.....29

رثاء الجواري:.....30

الفصل الثاني: حداد التراب

رثاء المدن:.....34

رثاء المدن المغربية القديمة:.....41.

رثاء الدول:.....34
رثاء دولة المماليك:.....46
رثاء القصور:.....48
خاتمة:.....51
قائمة المصادر والمراجع:.....54
الفهرس:.....59